العلماء بين التزمت والتسامح

العلماء
بين التزمت والتسامح



أ. د. محمد ابراهيم الجيوشي

العلماء بين التزمت والتسامح

أ.د. محمد إبراهيم الجيوشى

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٢ م

١٦ شارع البورصة - التوفيقية / القاهرة

ص . ب : ٢٥١٥ - تليفون ٧٥٢٢٢٤

فاكس ٥٣٦٧٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

هذه صفحات تعرض جوانب من حياة علماء المسلمين، وتصرفاتهم التى تتسم بالسماحة وسعة الأفق ورحابة الصدر، والفهم الصحيح لطبائع النفس الإنسانية وحاجاتها.

وقد وقر فى أذهان بعض الناس خطأ أن رجل الدين لا صلة له بالتعبير الجميل والفكاهة العفة فظلموه وظلموا الدين معه، وقد رأى بعض ضيقى الأفق فى هذه الدعوى الباطلة وسيلة يدارون بها عدم فهمهم لطبيعة الفطرة السليمة . فعزلوا أنفسهم عن الناس والمجتمع وعجزوا عن التأثير فى توجيه الناس الوجهة الصحيحة والوصول إلى قلوبهم، وأصبح الناس ينظرون إليهم نظرة غير مريحة، ومن أهداف هذه الصفحات أن تثبت من خلال تصرفات كبار العلماء أنهم شاركوا المجتمع فى شئون حياته فاستجاب الناس لهم وقبلوا منهم.

القاهرة فى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م

د . محمد إبراهيم الجيوشى

مقدمة
الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله صلاة دائمة إلى يوم الدين، وبعد

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب «العلماء بين التزمت والتسامح» وقد زيد فيها بحث عن موقف العلماء من الغناء ومكانته من الحل والحرمة.

وقد اختلطت المفاهيم في نظر كثير من الناس فظنوا أن الجفوة والغلظة والتشدد من لوازم التدين، وهذا فهم يخالف ما جاء به القرآن الكريم في ثنائه على نبينا صلى الله عليه وسلم في اتصافه بالرحمة واللين والبراءة من الفظاظة والغلظة في قوله سبحانه: « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » (١).

وما عرف من مسلك النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن معصية لله.

وكان من توجيهاته صلوات الله عليه لأصحابه يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين.

نسأل الله أن يوفقنا إلى الفهم الصحيح والعمل النافع والمسلك الصحيح.

ربيع أول ١٤١٣ هـ

سبتمبر ١٩٩٢م

أ .د. محمد إبراهيم الجيوشي

---

(١) آل عمران: ١٥٩

تمهيد

النفس الإنسانية ميالة بحكم تكوينها إلى الترويح من وقت لآخر والأخذ من المزاح المباح بالقدر الذى يدفع عنها السآمة والملل، ويجدد لها القوة والنشاط تلك طبيعة إنسانية لا سبيل إلى جحودها أو نكرانها، ولكن كثيرين ممن يرتدون رداء الصلاح والتقوى، ويشتغلون بالفقه والفتيا يرون من أدوات كمالهم أن يجعلوا حياتهم كلها جدا لا مجال للترويح فيها فتغدو ثقيلة منفرة، وتنعقد من حولهم هالة من الجفوة والبعد عن الناس مما يشعر بعدم انسجامهم مع من حولهم، أو مشاركتهم لهم فى أحساسيسهم ومشاعرهم.

وهذا لعمرى تنطع لا يمت للدين بصلة، وتزمت تنفر منه التقوى ويأباه الإيمان الخالص، لأن النبى ﷺ يقول: «المؤمن هين لين، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». ويقول: «إن أحبكم إلى وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون».

وعلى هدى قول رسول الله ﷺ كان علماء الإسلام وفقهاؤه يحملون قلوبا نقية وأرواحا صافية. تستهويهم الكلمة الخفيفة الظل، وتروقهم اللمحة اللطيفة، والنادرة العفة من غير أن يكون هناك خدش لدين أو نيل من مروءة أو تبذل فى سلوك لأن هذه طبيعة الفطرة السليمة.

وقد عرف عن فقهاء الحجاز السماحة واليسر فى الوقت الذى التزم فيه فقهاء العراق التزمت والتشدد والتحرج. وحينما تقول فقهاء العراق إنما نعنى الغالبية منهم لكن كبارهم وذوى البصائر فيهم لم تكن تفوتهم

هذه المسحة النقية من طبيعة الفطرة الصافية، ونوادر شريح بن الحارث الكندى القاضى، وعامر الشعبى تملأ كتب الأخبار والأدب، وهما من هما فقها وقضاء وعلما وذكاء وحكمة ومعرفة بأيام العرب وأخبارها إلى جانب ما امتازا به من تقوى ومروءة وصحة دين.

غير أن هناك قوما لا يعرفون حدودا يقفون عندها، فيجدر بالمرء أن يتصون أمامهم حتى لا يسيئوا فهم ما يرون من السماحة وحسن الخلق، ولعل ذلك هو الدافع إلى كثيرين من المشاهير أن يحذروا من المزاح أو الوقوع فيه، لئلا يسىء الغبى فهم ما يراد به.

أما المزاح من غير ريبة فلا ضير فيه، لأنه عنوان دمائه الخلق وتواضع النفس وكان يقال المزاح من أخلاق ذوى الدماثة، ونسب إلى الإمام على كرم الله وجهه أنه كان يقول: من كانت فيه دعابة فقد برىء من الكبر.

الفصل الأول
في صدر الإسلام

من مزاح النبى ﷺ

وقد مزح النبى ﷺ، ولم يقل إلا حقا، ولو كان فى المزاح نقص فى المروءة أو نيل من مكانة لما استباح النبى صلوات الله عليه لنفسه أن يأخذ منه بطرف، ولما سمح به أمامه، وقد رويت عنه ﷺ لطائف منها: أن زاهر ابن حزام كان يفد عليه من البادية من وقت لآخر بالهدايا والطرف، فبينما هو فى بعض أسواق المدينة إذ أقبل النبى ﷺ من خلفه واحتضنه وقال: من يشترى منى هذا العبد؟

فالتفت زاهر، فلما أبصر رسول الله ﷺ قبل يده وقال: تجدنى كاسدا يا رسول الله فقال: لا، ولكنك عند الله ربيح.

وكذلك المرأة التى جاءت إلى الرسول ﷺ تذكر شيئا عن زوجها فقال لها:

زوجك الذى فى عينه بياض.

فذهبت المرأة إلى زوجها، وجعلت تتأمله.

فلما سألها عن سبب هذا التأمل.

قالت: إن رسول الله: قال لى: إن فى عينك بياضا.

فقال الرجل: بياض عينى أكثر من سوادها.

ومن مزاحه صلوات الله عليه مع أصحابه أن صهيبا دخل عليه مرة وعينه رمداء، وكان بين يدى الرسول تمر. فأقبل صهيب يأكل.

فقال له النبى مداعبا: أتأكل التمر وعينك وجعة؟

فقال صهيب: إنما آكل بحذاء العين الصحيحة.

فتبسم رسول الله ﷺ.

ومن هذا القبيل ما روى أن أعرابيا أتاه ﷺ، فألفاه مهتما ممتقع اللون.

فقيل له: لا تكلمه وهو على هذه الحالة.

فقال: لا أدعه أو يضحك.

ثم جثا بين يديه فقال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، إن الدجال يخرج وقد هلك الناس جوعا. فيأتيهم بالثريد، فترى آكل ثريده حتى إذا تضلعت(١) كذبته؟

فضحك ﷺ وقال: يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين حينئذ (٢).

ولو كان فى هذا خدش للمروءة أو ثلمة فى الدين لما فعله النبى ﷺ، ولما سمح لأصحابة أن يفعلوه فى حضرته.

من مزاح الصحابة

ومن أوقع ما روى من المزاح فى الصدر الأول، وكان بعض ذلك فى حياة النبى ﷺ. كما تذكر الراوية المنسوبة لأم سلمة رضى الله عنها إذ تقول: خرج أبو بكر رضى الله عنه فى تجارة إلى العراق ومعه سويبط بن حرملة ـ وكان قد شهد بدرا ـ ونعيمان.

وكان سويبط على الزاد، وكان نعيمان مزاحا.

فقال: نعيمان لسويبط: أطعمنى.

---

(١) تضلعت يعنى شبعت وامتلأت ضلوعى.

(٢) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ص ٢٩، ٣٠.

قال سويبط: حتى يجىء أبو بكر.

فقال نعيمان: أما لأغيظنك.

ومروا بقوم، فقال نعيمان: تشترون منى عبدا؟

فقالوا: نعم.

فقال: إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم إنه حر، فإذا قال هذه المقالة تركتموه فلا تفسدوا على عبدى.

فقالوا: بل نشتريه.

قال: فاشتروه منى بعشر قلائص (١).

ثم أخذوه فوضعوا فى عنقه حبلا ومضوا به.

فقال سويبط: إنى حر ولست بعبد، وهذا يستهزىء بكم.

فقالوا له: قد خبرنا خبرك وانطلقوا به.

وجاء أبو بكر. فأخبروه الخبر، فاتبع القوم، فرد عليهم القلائص وأخذ منهم سويبطا ولما قدموا على النبى ﷺ فأخبروه الخبر ضحك صلوات الله عليه وأصحابه حوله وكان سويبط قد كف بصره بعد وفاة رسول الله ﷺ. فلقيه نعيمان فى المسجد وهو يقول: من يخرجنى حتى أبول؟

قال: أنا، وأخذ بيده فمضى به إلى زاوية فى المسجد عامرة بالناس، فقال له: بل ها هنا، فلما هم أن يكشف ثوبه صاح الناس عليه من كل ناحية.

فقال: من غرنى؟

قالوا: نعيمان.

---

(١) القلائص جمع قلوص، وهى النوق الشابة.

فقال: لله على لئن لقيته لأضربنه بعصاى.

فلقيه نعيمان بعد أيام فقال له: أتحب أن أدلك على نعيمان لتوفى نذرك؟

فقال: نعم، لله أبوك.

فأخذ بيده حتى أتى عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو يصلى، فقال: هذا هو فرفع عصاه وضربه.

فصاح به الناس وقالوا: أوجعت أمير المؤمنين.

فقال: من قادنى؟

قالوا: نعيمان.

قال" لا يغرنى بعدها (١).

ولا شك أن مجتمعا يقع فيه مثل هذه الطرائف فى عصر النبوة وبعدها مباشرة لم يكن يرى أفراده أن مثل هذه الدعابات البريئة تنال من مروءة أو تثلم دينا أو تضع من مقدار ذوى الشرف والقدر، ولو كانت كذلك لشددوا عليها النكير ولم يسمحوا بها.

دعابات عبد الله بن رواحة:

كان عبد الله بن رواحة رضى الله عنه من أكثر الصحابة دعابة وخفة روح، وكان شاعرا صاحب فكاهة مليحة وقريحة سمحة. وكانت له زوجة قليلة التجارب طيبة القلب بالغة السذاجة، وكانت تصدق ما يقال لها دون تفكر أو تدبر، وكانت إلى جانب ذلك شديدة الغيرة على زوجها والحب له، وكان لعبد الله جارية كتم عنها أمرها، فلما بلغها الخبر التمست كونه عندها حتى عرفت ذلك، فلما جاءها قالت له: بلغنى أنك اتخذت جارية،

(١) جمع الجواهر ص ٣٠، ٣١

وأنك الساعة خرجت من عندها وما أحسبك إلا جنبا.

قال: ما فعلت.

قالت: فاقرأ آيات من القرآن.

فقال:

شهدت بأن وعد الله حق	وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف	وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد	ملائكة الإله مقر بينا

فقالت: أما إذ قرأت القرآن، فقدعلمت أنك مكذوب عليك. وافتقدته ليلة أخرى فلم تجده على فراشها، فلم تزل تطلبه حتى عثرت عليه فى ناحية الدار.

فقالت: الآن صدقت ما بلغنى، فأنكر.

فقالت: أقرأ آيات من القرآن.

فقال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه	كما أنشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به مؤمنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه	إذا أثقلت بالمشركين المضاجع
وأعلم علما ليس بالظن أننى	إلى الله محشور هناك فراجع

فقالت: آمنت بالله وكذبت ظنى.

فلما أخبر بذلك ﷺ ضحك. وقال: هذا لعمرى من معاريض الكلام. يغفر الله لك يا ابن رواحة خياركم خيركم لنسائكم (١).

---

(١) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ص٣١، ٣٢

الفصل الثانى
سماحة كبار العلماء

من غرائب التنطع:

سرت تلك الروح المسماح بين علماء الحجاز وفقهائه من التابعين ومن جاء بعدهم، إلا أن بعض الناس قد ضيق على نفسه وعلى الناس معه، وفهم أن الدين تشدد وتزمت حتى إن بعضهم كان يرى إنشاد الشعر ناقضا للوضوء، وهذا من غرائب التنطع فى الدين. فقد قال جرير بن حازم: كنت فى مسجد الجهاضم، فقرضت بيت شعر.

فقالوا: ما نراك إلا قد أحدثت فتوضأ.

فذعرنى قولهم، فأتيت ابن سيرين، وقد قام إلى الصلاة.

فقلت: رويدك، يا أبا بكر.

فقال مهيم (١) فأخبرته.

فقال: هلأ رددت عليهم وأنشد:

ديار لرملة إذ عيشنا ... بها عيشة الأنعم الأفضل

وإذ ودها فارغ للصديق ... لم تتغير ولم تتبدل

كأن الثلوج وماء السحاب ... والقرقفية والفلفل

وماء القرنفل والزنجبيل ... شيب به ثمر السنبل

يصب على برد أنيابها ... قبيل الصباح ولم ينجل

---

(١) مهيم معناها: ماذا

ثم قال: الله أكبر ودخل فى الصلاة (١).

سرت هذه الروح المسماح التى يمثلها ما فعله ابن سيرين بين علماء الحجاز وعباده لأنهم يرون الجفاء منفرا عن الدين وصادا عن الهداية ومخالفة للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة (٢).

أبو حازم يستغفر لامرأة سافرة:

وهذا أبو حازم الأعرج أحد فضلاء التابعين وعبادهم، وصاحب المقامات المشهورة، والعظات البليغة للخلفاء والملوك، حتى إن تأثير عظاته فيهم كانت تدع دموعهم جارية وقلوبهم تنفطر من شدة وقعها عليهم، أبو حازم هذا الذى كان يقول: كل عمل تكره من أجله الموت فاتركه، ولا يضرك متى بت، خرج يوما لرمى الجمار فإذا امرأة سافرة عن وجهها قد فتنت الناس بحسنها وألهتهم بجمالها فقال لها: يا هذه، إنك بمشعر حرام، وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم، فاتقى الله واستترى، فإن الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» (٣)

فقالت: إنى من اللاتى قيل فيهن،

أماطت كساء الخز عن حر وجهها   وأرخت على المتنيين بردا مهلهلا

من اللائى لم يحججن يبغين حسبة   ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

ترى ماذا كان رد أبى حازم إزاء هذا التحدى الصارخ والإصرار على الإثارة لم يثر أبو حازم ولم يتوعد، ولم يرمها بالكفر والفجور والفسوق.

بل قال لأصحابه: تعالوا بنا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لا يعذبها الله تعالى بالنار، وجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون.

(١) جمع الجواهر ص٣٢

(٢) إشارة إلى سورة النحل ١٦ آية رقم ١٢٥ «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»

(٣) سورة النور ٢٤ آية رقم ٣١

فلما بلغ ذلك عامرا الشعبى قال: ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم، أما والله، لو كان من قرى العراق لقال: اغربى عليك لعنة الله(١).

دعابات كبار العلماء:

امتلأت كتب الأخبار والأدب بكثير من الملح والنوادر التى أطلقها كبار العلماء والفقهاء والقضاة والمفتين على مدار التاريخ. ولعل مما يمتع القارىء أن نوقفه على جانب منها ليدرك مدى ما كان يتمتع به هؤلاء الأعلام من القدرة على إطلاق الملح اللطيفة والدعابة الحلوة والنادرة البارعة.

دعابات شريح القاضى:

من ذلك ما رواه صاحب العقد وغيره أن عدى بن أرطأة دخل على شريح القاضى.

فقال له: أين أنت أصلحك الله؟

قال: بينك وبين الحائط.

قال: اسمع منى.

قال: قل اسمع.

قال: إنى رجل من أهل الشام.

قال: مكان سحيق.

قال: وتزوجت عندكم.

قال: بالرفاء والبنين.

قالى: وولد لى غلام.

(١) زهر الاداب جـ ١ ص ٢١٠، ٢١١ تحقيق الدكتور زكى مبارك

قال: ليهنك الفارس.

قال: وأردت أن أرحلها

قال: الرجل أحق بأهله

قال:وشرطت لها دارها

قال: الشرط أملك

قال: فاحكم بيننا

قال: قد فعلت

قال: فعلى من حكمت؟

قال: على ابن أمك.

قال: بشهادة من؟

قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

أراد شريح إقراره على نفسه بالشرط (١).

وقد روى عن شريح رحمه الله كثير من مثل هذه الطرائف التى تدل على خفة فى الروح ورشاقة فى التعبير؛ وميل إلى الفكاهة والدعابة، فى حشمة وتورع، وهو الذى بلغ من شدة ورعه وتقواه أنه كان يحرص على مراعاة حقوق جيرانه والبعد عما يسبب لهم أى ضيق أو أذى حتى ولو كان ذلك على حساب راحته هو وبلغ من حرصه على تحقيق هذا أنه كان يأمر أهله إذا مات عندهم سنور (٢) أن يلقوه فى فناء داره حتى لا يؤذى به المارة أو الجيران.

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣١٧، ٣١٨ تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان.

(٢) السنور – القط

نوادر الشعبى

وقد سار على خطى شريح فى هذا الدرب من الفكاهة تلميذه عامر بن شراحيل الشعبى الذى كان يلقب لعلمه وتقواه «علامة التابعين وحبر الأمة»، وهو الذى كـان يلاعب ابنتـه بالنرد إذا جلس فى المنزل، فلمـا أنكر عليـه بعض من رآه ذلك قال: قراء (١) فى الداخل والخارج نموت من الغم.

ودخل عليه رجل ذات يوم وهو جـالس مع زوجتـه فـسأل الرجل: أيكم الشعبى؟

فأشار الشعبى الى زوجته وقال: هذه.

وجرت له فى مجالس القضاء نوادر طريفة، وكان من عادة القضاة أن يعقدوا مجالس القضاء فى المساجد، فدخل عليه يوماً رجل، ومعه امرأة من أجمل النساء، فاختصما إليه. فأدلت المرأة بحجتها، وقربت بينتها. واسم المرأة أم جعفر بن عيسى بن جراد وكانت ذات حسن وبهاء وعليها كساء خز أسود، وحينما تقدمت إلى مجلس القضاء كان بالمسجد عامر بن مسلم وهذيل الأشجعى فلما انصرفت المرأة من مجلس القضاء سألها هذيل: ماصنعت؟ أجابت: سألنى البينة، ومن يسأل البينة فقد أفلح.

وكان هذيل شاعرا فيه مجون فقال: ائتونى بدواة وقرطاس، ثم كتب إلى الشعبى بالأبيات التالية:

فتن الشعبى لما ... رفع الطرف اليها

حين دلت بدلال ... ثم هزت منكبيها

فتنته بقوام ... وبخطى حاجبيها

وبنان كالمدارى ... وتكسر مقلتيها

(١) القراء لقب علمى يطلق على العلماء فى الصدر الأول من الإسلام

من فتـــاة حـــين قامــت رفـعت مأكمتيهـــا

ومشــت مشيـــاً رويـــداً ثم هــزت منكبيهــا

قال للجلواز (١) قدمهـــا وأخـر شاهديهـــا

وقضى جورا على الخصم ولم يقـض عليهـــا

كيف لو أبصــر منهـــا نحرها أو ساعديهـا

لصبـا حتـــى تـــراه ساجداً بـين يديـهـا

بنــت عيــسى بـن جراد ظلــم الخصم لديها

وقد سار هذا الشعر، وتناقلته الألسن، وتغنت به الفتيات في شوارع الكوفـة ومن الطرائف أن فـتـاة كـانت تردد هذه الأبيـات يومـا وهـى فى الطريق وإذا بـها تفاجـأ بالشـعبى أمامـها وجـها لوجه وكات قـد أنشدت الشطر الأول من المطلع، فتن الشعبى لما. فلما رأته أمسكت فقال مكملا: رفع الطرف إليـهـا. بل إن الشـعـر سـار من الكوفـة إلى دمـشق، ووصل مـجلس الخليفـة ورواه الخليـفـة نفسـه، وفى زيارة بعد ذلك للشـعبى إلى الخليفـة فى دمـشق. لم يكد الشـعـبى يدلف إلى مـجلس عبـد الملك، ويقع بصره عليه حتى ابتدره منشداً.

فتن الشعبـــى لما رفع الطرف إليها (٢)

---

(١) الشرطى

(٢) روى هذا الخبر صاحب العقد جـ١ ص ٧٣/ وابن عساكر جـ ٧ ص ٥٣، ١٥٣، وبين الروايتين اختلاف وقد أدخلنا إحداهما فى الأخرى

الفصل الثالث
ظرف أهل الحرمين

ظرف أهل المدينة

كان أهل المدينة معروفين بحلاوة المزاح؛ ورقة الطبع وحسن الأدب عند الاستماع، والاهتزاز للقول الجميل والصوت الشجى، حتى روى عن عبد الله بن جعفر أنه قال: إن لى عند السماع هزة لو سئلت عندها لأعطيت، ولو قاتلت لأبليت، وأخباره فى هذا المجال لا حصر لها وهى مبثوثة فى كتب الأخبار والأدب.

وقد روى صاحب العقد عن الأصمعى أنه مر بدار الزبير بالبصرة فإذا شيخ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبا ريحانة جالس بالباب عليه شملة تستره يقول الأصمعى فسلمت عليه، وجلست إليه، فبينما أنا كذلك إذ طلعت علينا سويداء تحمل قربة، فلما نظر إليها لم يتمالك أن قام إليها، فقال لها: بالله غن صوتا.

فقالت: إن موالى أعجلونى.

فقال: لابد من ذلك

قالت: أما والقربة على كتفى فلا.

قال: فأنا أحملها.

فأخذ القربة عنها، فاندفعت تغنى:

فؤادى أسير لا يفك ومهجتى ... تفيض وأحزانى عليك تطول

ولى مقلة قرحى لطول اشتياقها ... إليك وأجفانى عليك همول

فديتك أعدائى كثير وشقتى ... بعيد وأشياعى لديك قليل

فطرب وصرخ صرخة، وضرب بالقربة إلى الأرض فشقها، فقامت الجارية تبكى، وقالت: ماهذا جزائى منك، أسعفتك بحاجتك فعرضتنى لما أكره من موالى.

قال: لا تغتمى، فإن المصيبة علىّ حصلت، ونزع الشملة ووضع يدا من خلف ويدا من قدام، وباع الشملة وابتاع لها قربة جديدة وقعد بتلك الحال.

فاجتاز به رجل من ولد على ابن أبى طالب رضى الله عنه، فعرف حاله فقال: ياأبا ريحانة، أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم: «فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» (١).

قال: لا يابن بنت رسول الله، ولكن من الذين قال الله تعالى فيهم: «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» (٢) فضحك وأمر له بألف درهم (٣).

وكان الأوقص المخزومى قاضى المدينة، فمر به رجل سكران بالليل يتغنى ويخطىء فى ألحانه، فأشرف عليه وقال: ياهذا، شربت حراما، وأيقظت نياما وغنيت خطأ، خذه عنى، وأصلح له الغناء (٤).

وهذا الذي روى عن القاضى المخزومى يذكرنا بقصة جار أبى حنيفة رضى لله عنه الذى كان يشرب بالليل ويتغنى بالبيت المشهور:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

ومضت ليال افتقد فيها أبو حنيفة صوت جاره، فلما سأل عنه عرف أن الشرطة أمسكت به وألقته فى الحبس، فتوجه أبو حنيفة إلى الحاكم

---

(١) سورة البقرة. آية رقم ١٦

(٢) سورة الزمر. آية ١٧، ١٨

(٣) زهر الآداب جـ١ ص ٢١٤، ٢١٥، وجمع الجواهر ص ٤٠

(٤) زهر الآداب جـ ١ ص ٢١٥.

وبذل شفاعته لجاره حتى أطلقه، فلما صار حرا طليقا، دنا منه الإمام أبو حنيفة وقال: يافتى، ترى أنا قد أضعناك، فاستحيا وأقلع عن الشراب.

وهذا سعيد بن المسيب في علمه وتقاه، ونسكه وفقهه، يسمع منشدا يردد:

فلم ترعيني مثل سرب رأيته ... خرجن من التنعيم معتمرات

مررن بفخ ثم رحن عشية ... يلبين للرحمن مؤتجرات

ولما رأت ركب النميري أعرضت ... وكن بأن يلقينه حذرات

دعت نسوة شم العرانين بزّلا ... نواعم لا شعثا ولا غبرات

فأبرزن لما قمن يحجبن دونها ... حجابا من القسي والحبرات

تضوع طيباً بطن نعمان إذ مشت ... به زينب في نسوة عطرات

يخبئن أطراف البنان من التقى ... ويخرجن شطر الليل معتجرات

فقال سعيد: هذا والله مما يلذ استماعه؛ ثم تابع المنشد:

وليست كأخرى وسعت جيب درعها ... وأبدت بنان الكف للجمرات

وغالت ببان المسك وحفا مرجلا ... على مثل بدر لاح في الظلمات

وقامت تراءى بين جمع فأفتنت ... برؤيتها من راح من عرفات

ويرى الرواة أن الأبيات الثلاثة الأخريات هي لسعيد بن المسيب، أما الأبيات الاولى فهي من شعر محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي يقولها في زينب بنت يوسف أخت الحجاج ولما ظفر به الحجاج أخذ يتوعده ويقول أنت القائل ماقلت؟

قال: وهل قلت أصلح الله الامير إلا:

يخبئن أطراف البنان من التقى ... ويخرجن شطر الليل معتجرات

قال له: كم كنتم؟: إذ تقول ولما رأت ركب النميرى أعرضت؟

قال: والله ماكنت إلا أنا وصاحب لى على حمار هزيل.

فضحك الحجاج وعفا عنه (١).

ظرف أهل مكة:

وهذا ابن جريج فقيه تنسب إليه قصة تفيض ظرفا وغرابة، فقد روى ابراهيم الحرانى فقال: حججت مع امير المؤمنين الرشيد، فدخلت مسجد رسول الله ﷺ فبينما أنا بين القبر والمنبر، إذا أنا برجل حسن الهيئة خاضب، ومعه رجل فى مثل حاله، فحانت منى التفاتة، فإذا هو يقوس حاجبيه، ويفتح فاه، ويلوى عنقه، ويشير بعنقه، فتجوزت فى صلاتى ثم سلمت.

فقلت: أفى مسجد رسول الله ﷺ تتغنى؟

فقال: قنعك الله خزيه ماأجهلك، أما فى الجنة غناء؟

قلت: بلى، لعمرى فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين.

قال: أما نحن فى روضة من رياض الجنة؟

قلت: لا

قال: واحرباه، أترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة» فنحن فى تلك الروضة.

قلت: قبح الله شيخا ماأسفهه.

قال: بالقبر والمنبر لما أنصت إلى.

---

(١) زهر الاداب جـ ١ ص ٢١٥، ٢١٦ تحقيق الدكتور زكى مبارك

فتخوفت ألا أنصت إليه، فاندفع يغني بصوت يخفيه:

فليس عشيات الحمى برواجع إليك ولكن خل عينيك تدمعا

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

فوالله (١) إن قمت إلى الصلاة لما دخل قلبي، فلما رأى مانزل بي قال:

ياابن أم، أرى نفسك قد استجابت، وطابت فهل لك في زيادة؟

قلت ويحك، في مسجد رسول الله ﷺ؟

قال: أنا والله أعرف بالله ورسوله منك، فدعنا من جهلك، ثم تغنى:

فلو كان واش بالمدينة داره وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا

وماذا لهم لا أحسن الله حالهم من الشأن في تصريم ليلى حباليا

فقال له صاحبه: ياابن أم، أحسنت، وعتق مايملك لو كان أمير المومنين الرشيد في هذا الموضع لخلع عليك ثيابه مشقوقة طربا.

يقول الحربي: فقمت وهما لا يعلمان من أنا، فدخلت على أمير المؤمنين فأعلمته الخبر.

قال: أدركهما لا يفوتانك

فوجهت من جاء بهما، فلما دخلا عليه بوجوه قد ذهب ماؤها، وأنا قائم على رأسه.

فقال: ياإبراهيم، هذان هما؟

قلت: نعم.

فنظر إليّ المغنى منهما وقال: سعاية في جوار رسول الله ﷺ؟ فسرى عن أمير المومنين بعض غضبه وتبسم:

---

(١) إن هنا معناها (ما) النافية

فقال: ماكنتما فيه؟

قالا: في خير.

قال: فماذا الخير؟

فسكتا.

فقال للمغنى منهما: من أنت؟

فابتدره جماعة فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا ابن جريج فقيه مكة فقال: فقيه مكة يتغنى فى مسجد رسول الله ﷺ؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم يكن ذلك منى بالقصد للغناء، ولكنى كنت أسمعت هذا المخزومى - يعنى صاحبه - صوتين فلم يزالا فى قلبى حتى التقينا، فأحببت أن يأخذهما عنى.

فأخذهما، وحلف أنى قد أحسنت، وأنه لو كان فى الموضع أمير المؤمنين لخلع على، وسكت.

فقال الرشيد: تركت من الحديث شيئا؟

قال: ما تركت شيئا، يا أمير المؤمنين.

قال: والله لتقولن.

قال: يا أمير المؤمنين زعم أنك لو كنت فى موضعه لخلعت علىّ ثيابا مشقوقة طربا.

فتبسم وقال: أما هذا فلا، ولكن نخلعها عليك صحيحة فهى خير لك. ثم دعا بثياب فلبسها، ونبذ إليه ثيابه، وأمر له بعشرين ألف درهم، ولصاحبه بعشرة آلاف درهم.

وقال: لا تعودن لهذا.

فقال صاحبه: إلا أن يحج أمير المؤمنين ثانية.

فضحك وقال: ألحقوه بصاحبه فى الجائزة «(١)

ويبدو أن الحرانى كان موعودا بلقاء الظرفاء من أهل الحرمين، فلما قدم مكة بعد ما وقع له مع ابن جريج أخذ يجول فى أسواقها، وبينما هو يفحص قوسا ليشتريها إذ تقدم منه شخص وقال له: نعم القوس فى يدك فيقول له: أريد ابسط منها قليلا.

فيجيبه الرجل: عندى بغيتك، إيت المنزل.

يقول إبراهيم فصرت إليه فأخرج إلى قوسا جيدة لينة حسنة الصنعة.

قلت عندما رأيتها: نعم هذه أريد، فكم ثمنها؟

قال: عشرة دنانير.

قلت: يا هذا أغرقت فى النزع (٢)

قال: هذا سومى، فهات سومك أنت.

قلت: دينارين.

فأحد النظر إلى وقال: «كلمة نابية» .

يقول الحرانى: فالذى كان يجب للطبيعة أن تأتى به «يريد الغضب» تحول فصار ضحكا.

فقلت: غضب الله عليك. تطلق لسانك فى حرم الله وأمنه فى أيام عظيمة، وأنت بمثل هذه السن تتكلم بمثل هذا الكلام.فقال: هو ما قلت لك، إنما هو بيع وشراء، فلا تغضب فإنى لم أغضب من عطيتك.

قال الحرانى: ففارقته، ودخلت على أمير المؤمنين، فقلت: يا سيدى هاهنا خبر أعجب من خبر ابن جريج، وحدثته الحديث.

---

(١) جمع الجوار ص ٤٨، ٤٩

(٢) يعنى أغليت الثمن

فقال: ارجع فجئني به، فوجهت غلاما كان معى وأنا أساومه، ومعه أعوان فجاءوا به.

فلما دخل عليه: قال: هذا صاحبك يا إبراهيم؟

قلت: نعم، يا أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: ماذا قلت له حين ساومك بالقوس؟

قال: قد دار بينى وبينه كلام.

قال: أخبرنى به.

قال: لست منى على سوم فأخبرك.

قال: فماذا قال لك؟

قال: هو أعلم بما قاله.

فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، أخرج إلى قوسا عربية بكنانتها.

فقلت: بكم هذه؟

قال : بعشرة دنانير.

قلت: أسرفت فخذ منى دينارين.

قال: «كلمة نابية» لا تخفى على القارىء.

قال الرشيد موجها الخطاب إلى الرجل: كذا كان؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين، إنما هذا شراء وبيع، ولم يتم لى بيعها بما اعطانى، وظننت أن بضاعته قليلة، فقلت: اخذ دينارين وعروضا بالباقى.

فضحك الرشيد حتى تبسط ثم قال : قاتلك الله فما أقبح مجونك ووصله.

قال إبراهيم: فلما انصرفنا خارجين عن مكة مررت به فوقفت عليه وسلمت.

فقال: ما ترى فى تيك القوس، ألك فيها رأى؟

قلت: أما على شريطتك الأولى فلا.

قال: فلا بأس، فخذها منى بدينارين، وغن لى ثلاث أصوات أو خذها بخمسة، وأغنيك أربعة أصوات، ثلاثة لمعبد، وواحد لابن عائشة كان يفعل فيه ما أحل الله وحرم.

قلت: هذا وحده.

فاندفع يغنى:

وخطا بأطراف الأسنة مضجعى وردا على عينىّ فضل ردائيا

فأجاد ما شاء الله وحسنه.

فقلت: لولا أمير المؤمنين قد قدمت له دابته لوقفت عليك.

فقال: امض عليك السلام، وإن كان فى القلب ما فيه، إذ بخلت على أخيك بضمة أو ضمتين.

قلت: مالك؟ لعنك الله.

وفارقته وحدثت أمير المؤمنين بما قال.

فقال: يا إبراهيم، تجد بالعراق طولا وعرضا واحدا له ما لأهل الحرمين من الذكاء والظرف.

قلت: لا أعرف موضعه(١).

---

(١) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ص ٤٩، ٥٠

في مجلس الإمام الشافعي

رأينا كيف كان مسلك كبار الفقهاء وأهل العلم ممن طبعوا على السماحة، وسعة الصدر، والفهم الصحيح للطبائع الإنسانية من غير أن يكون في ذلك نيل من تقواهم أو اتهام لدينهم، ولنختم هذا الفصل بما روى عن الإمام الشافعي رضى الله عنه في هذا المضمار.

كان الشافعي في مجلسه بين أصحابه، إذ جاءه رجل برقعة فنظر فيها وتبسم ثم كتب فيها ودفعها إليه، وتحدث أصحاب الشافعي بعضهم لبعض قائلين:

كيف يسأل الشافعي، ويجيب، ولا نعلم ما هو السؤال ولا ما الجواب، ثم لحقوا بالسائل، وأخذوا منه الرقعة ليطلعوا عليها، وإذا فيها:

سل المفتي المكي، هل في تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

ووقع الشافعي في الرقعة إجابة على التساؤل:

أقول معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

ومن هذا القبيل أنه كان جالسا يوما من أيام الجمع للنظر فجاءت امرأة وألقت إليه رقعة مكتوب فيها:

عفا الله عن عبد أعان بدعوة خليلين كانا دائمين على الود

إلى أن مشى واشي الهوى بنميمة إلى ذاك من هذا فزالا عن العهد

وإذا بأصحاب الشافعي يرون دموعه تنحدر على لحيته، ثم لا يلبث صوته أن يصافح مسامعهم قائلا: ليس هذا يوم نظر، وإنما هذا يوم دعاء، وأخذ في الدعاء حتى تفرق أصحابه (٢).

وأخيرا فلنلق باسماعنا إلى هذه المساجلة الشعرية بين الشافعي رضى الله عنه وبين أحد العشاق المحبين حين أقبل عليه وألقى إليه برقعة مكتوب فيها.

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٣٠٥ نشر الرفاعي

(٢) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٣٠٦ نشر الرفاعي

سل المفتى المكى من آل هاشم إذا اشتد وجد بامرىء كيف يصنع

فكتب الشافعي:

يدارى هواه ثم يكتم وجده ويصبر فى كل الأمور ويخضع

فأخذها صاحبها وانصرف بها ثم عاد وقد كتب تحت جواب الشافعى البيت التالى:

فكيف يدارى والهوى قاتل الفنى وفى كل يوم غصة يتجرع

فكتب الشافعى رحمه الله:

فإن هو لم يصبر على ما أصابه فليس له شىء سوى الموت أنفع (١)

وكذلك كان مسلك كبار العلماء على مدى التاريخ، وقد جرى شىء قريب مما سبق مع القاضى أبى الطيب الطبرى وكان شيخ الشافعية فى بغداد طيلة القرن الرابع الهجرى، وكان على الرغم من فضله وفقهه وعلمه ونسكه وجلوسه مجلس القضاء يحمل بين جنبيه روح الشاعر، وله إنتاج شعرى وافر.

وكتب إليه يوما أحد الظرفاء رقعة ألقى إليه بها مكتوب فيها:

يا أيها العالم ماذا ترى؟ فى عاشق ذاب من الوجد

من حب ظبى أهيف أغيد سهل المحيا حسن القد

فهل ترى تقبيله جائزا؟ فى النحر والعينين والخد

من غير ما فحش ولا ريبة بل بعناق جائر الحد

إذا أنت لم تفت فإنى إذا أصيح من وجدى واستعدى

فأجاب:

يا أيها السائل إنى أرى تقبيلك المعشوق فى الخد

يفضى إلى ما بعده فاجتنب قبلته بالحد والجهد

فإن من يرتع حول الحمى يوشك أن يجنى من الورد

يغنيك عنه كاعب ناهد تحضر بالملك أو العقد

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٣٠٦ نشر الرفاعى

تنال منها كل ما تشتهى　　　من غير ما فحش ولا ضد

هذا جوابى لقتيل الهوى　　　فلا تكن فى ذاك مستعدى(١)

وقد عرف التاريخ وحفظت كتب الأدب والأخبار لنا عددا من فقهاء المدينة وغيرها ممن اشتهروا بالظرف والأدب وحسن القول، وسنعرض لأخبارهم ومكانتهم فى مجتماتهم، واستحواذهم على احترام الناس لهم، وتقديرهم لأدبهم وظرفهم، وثقتهم فى نسكم وورعهم وتقواهم.

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى جـ ٣ ص ١٧٨

الفصل الرابع
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة

مكانته:

أحد فقهاء المدينة السبعة الذين يدور عليهم أمر الفتوى، كان عالما فاضلا تقيا فقيها، وكان شاعرا رقيقا غزلا، ذا حس مرهف وعاطفة جياشة، وخلق سمح، وكان إلى جانب هذا كله ثقة كثير الحديث، وحسبه أنه أحد الفقهاء العشرة بله السبعة الذين يرجع إليهم أهل المدينة فى معرفة أمور دينهم.

وقيل عنه لم يكن بعد الصحابة فقيه أشعر منه، ولا شاعر أفقه منه، ذاك عبيد الله بن عتبة.

أسرته:

كان أبوه عبد الله رجلا صالحا تولى بعض الأعمال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فحمد سيرته. ولعبيد الله أخوان هما عون، وعبد الرحمن، وقد اشتهر عون بالفقه والأدب والنسك، وكانت له خلطة بعمر بن عبد العزيز ودالة عليه، وكان يدخل عليه بلا إذن، وهو الذى توجه إليه جرير بقوله لما طال بالشعراء المقام بباب عمر:

يا أيها القارئ المرخى عمامته   هذا زمانك إنى قد مضى زمنى
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه   أنى لدى الباب كالمصفود فى قرن

وكان عون يرى الإرجاء ثم رجع عنه، وله شعر يقول فيه:

فأول ما أفارق غير شك   أفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من آل جور   وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال   وقد حرمت دماء المؤمنينا

وكانت له مشاركة فى الحياة العامة. فقد خرج مع ابن الأشعث ضد

الحجاج بن يوسف. وهرب بعد هزيمة ابن الأشعث من الحجاج، فلجأ إلى محمد بن مروان بن الحكم ينصيبين فأمنه، ووكل إليه تأديب ولديه مروان بن محمد وعبد الرحمن بن محمد.

وقد سأله يوما. كيف رأيت ابنى أخيك.

فقال: أما عبد الرحمن فطفل، وأما مروان فإنى إن أتيته حجب وإن قعدت عنه عتب، وإن عاتبته صخب، وإن صاحبته غضب.

ثم تركه ولزم عمر بن عبد العزيز، وقد أورد له أبو نعيم أقوالا مطولة فى المناجاة والاستغفار (١)

وأما عبد الرحمن فلم تكن له نباهة أخويه ولا فضلهما فخمل ذكره (٢)، أما جده فعتبة بن مسعود أخو عبد الله بن مسعود صاحبا رسول الله ﷺ.

شيوخه:

وكان عبيد الله من فضلاء التابعين، روى الحديث عن أبيه، وأرسل عن عم أبيه عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وأبى هريرة وعائشة وابن عباس وابن عمر وعثمان وسهل ابنا حنيف والنعمان بن بشير وأبى سعيد الخدرى وأبى طلحة الأنصارى وأبى واقد الليثى، وفاطمة بنت قيس، وزيد ابن خالد وعبد الرحمن بن عبد القارى وأم القيس بنت محصن(٣).

تلاميذه:

وروى عنه أخوه عون بن عبد الله، ومحمد بن شهاب الزهرى، وسعد بن إبراهيم وأبو الزناد، وصالح بن كيسان، وعراك بن مالك وموسى بن أبى

---

(١) راجع الحلية جـ ٤ ص ٢٥٠ - ٢٧٢

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٨٩ طبع ساس

(٣) تهذيب جـ ٧ ص ٢٣ تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٧٤

عائشة وأبو بكر بن الجهم العدوى وضمرة بن سعيد، وطلحة بن يحيى بن طلحة، وعبد الله بن عبيد الله الريذى، وعبد المجيد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وحصيف الجذرى (١).

علمه وقوة حافظته:

كان عبيد الله ذا حافظة واعية حتى قال عن نفسه فيما يرويه ابن حجر. ما سمعت حديثا قط، ما شاء الله أن أعيه إلا وعيته وكانت هذه المقدرة إلى جانب دينه وتقواه مؤهلا له أن يكون أحد فقهاء المدينة السبعة وأن ينال احترام العلماء وتقديرهم له وثناءهم عليه سواء كانوا معاصرين له، أو متأخرين عنه، وحتى أدهشت غزارة علمه رجلا مثل الزهرى فقال عنه. كنت إذا لقيت عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فكأنما أفجر به بحرا (٢).

ويقول فى مجال آخر ما جالست أحدا من العلماء إلا أرى أنى قد أتيت على ما عنده، وقد كنت اختلفت إلى عروة حتى ما كنت أسمع منه إلا معادا ما خلا عبيد الله بن عتبةلم آته إلا وجدت عنده علما طريفا (٣).

وروى عنه أيضا قوله: سمعت من العلم شيئا كثيرا، فلما لقيت عبيد الله بن عبد الله كأنى كنت فى شعب من الشعاب فوقعت فى الوادى، وفى رواية أخرى فصرت كأنى لم أسمع من العلم شيئا (٤) وحديث الزهرى عنه حديث رجل لاقاه، ودارسه وأخذ عنه وعن غيره واستطاع أن يحس عن قرب الفرق بينه وبين غيره من العلماء.

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٣٢ تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٧٤
(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٩٤ تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان
(٣) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٢٤
(٤) الأغانى جـ ٨ ص ٨٩

وهذه الغزارة فى العلم مع رحابة الأفق وطلاوة الحديث وحسن السمت وعلو النفس كل هذه القدرات جعلت رجلا مثل عمر بن عبد العزيز يتمنى الجلوس إليه والاستماع إلى حديثه، ويقول: ليت لى مجلسا من عبيد الله ابن عتبة بألف دينار (١).

وقد أورد ابن خلكان هذا الخبر بتفصيل أتم حيث يقول: قال عمر بن عبد العزيز: لأن يكون لى مجلس من عبيد الله أحب إلى من الدنيا وما فيها.

وقال لأصحابه والله إنى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال.

فقالوا: يا أمير المؤمنين، تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك؟

فقال: أين يذهب بكم، والله إنى لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف.إن فى المجادلة تلقيحا للعقل، وترويحا للقلب، وتسريحا للهم وتنقيحا للأدب (٢).

وكان دائما يقول: لو كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة حيا ما صدرت إلا عن رأيه وهذه ثقة مجرب فى رجاحة عقل عبيد الله واستقامة دينه وسداد رأيه، وحينما يقول عمر ذلك بعدما جلس بين يديه سنوات يتلقى على يديه العلم والأدب والحديث إنما يقوله بعد تجربة ودراية لا يبتغى بما يقول إلا مرضاة الله، وهو من نعرف نسكا وزهدا وعدلا حتى لقب بخامس الخلفاء الراشدين.

وقد نقل ابن حجر آراء العلماء فى عبيد الله، وهى كلها مجمعة على علمه الغزير وفقهه المستنير، ونبله وفضله وأدبه وشاعريته (٣).

---

(١) العقد الفريد جـ٢ ص ٩٢

(٢) وفيات الأعيان جـ ص ٣٢١، ٢٣

(٣) راجع تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٢٣. ٢٤

شيخوخته ووفاته:

كان عبيد الله قد أصيب بعينيه فى أخريات حياته ويبدو أن الفترة التى فقد فيها بصره كانت شديدة الوقع على نفسه إذ كانت حساسيته المفرطة تجعله يستشعر أن إخوة الأمس قد ضيعوا واجب الأخوة بعدما امتد به العمر وفقد نور البصر واختلف فى وفاته رحمه الله بين سنوات ٩٤، ٩٥، ٩٨، ٩٩هـ.

وقد أثر عنه قوله: ما أحسن الحسنات فى إثر السيئات، وأقبح السيئات فى إثر الحسنات، وأحسن من هذا وأقبح من ذلك الحسنات فى إثر الحسنات. والسيئات فى إثر السيئات (١).

هل يضير عالم الدين أن يكون له بصر بالفنون؟

ليس من هدف هذه العجالة أن تدرس آراء عبيد الله الفقهية وطريقته فى استنباط الأحكام الشرعية، فإن ذلك مجاله بحث آخر وإنما المقصد من كتابة هذه السطور أن نعرض جانبا من النشاط الأدبى والنفثات العاطفية التى فاضت بها قرائح فقهاء مشهورين، وعلماء كان لهم فى حقل الشرع قدم راسخة، وعرف عنهم استقامة الدين، ونقاء الفطرة وسماحة الخلق وسعة الأفق فى معالجة الامور، ونقف عن طريق البصر فى إنتاجهم أن عالم الدين لا يضيره أن يلم بألوان من الفنون كالشعر والموسيقى وما إلى ذلك من حلو الحديث، بل إن عددا من أعلامهم المشهورين لم يكونوا يستنكفون أن يكون لهم معرفة بأصول النغم والضرب على الآلات. وقصة الشعبى فى مجلس بشر بن مروان، وهو يوجه أحد العازفين أن يشد أوتاره ويحكم الضرب قصة مستفيضة ومن هذا القبيل مايبدو أن عبيد الله كان على علم بأدوات الموسيقى وآلات الطرب، فقد ذكر اسم «البربط» فى مجلس يزيد بن عبد الملك. فتساءل يزيد: ليت شعرى ما هو؟

(١) العقد الفريد جـ ٦ ص ١٣٦

وكان عبيد الله حاضرا، فأجاب: أنا اخبرك ماهو، ثم أخذ فى وصفه وصف الخبير به وبمحتوياته ودقائق أجزائه، وكان مما قال، هو محدودب الظهر، أرسح البطن له أربعة أوتار، إذا حركت لم يسمعها أحد إلا حرك اعطافه وهز رأسه (١).

عبيد الله وعمر بن عبد العزيز:

كانت صلة عبيد الله بعمر بن عبد العزيز وثيقة إذ كان معلمه، وله عليه من الدالة والحقوق ما للأستاذ على تلميذه، ولعل هذا هو سبب الإجلال والتقدير اللذين يبدوان فى حديث عمر عن عبيد الله، حتى إنه لما ولى الخلافة قال لو كان عبيد الله حيا ما صدرت إلا عن رأيه.

ولعل المزاج المشترك بين الرجلين كان يجمع بينهما، فقد كان عمر فى شبابه مترفا مولعا بالغناء مع علم وعفاف وتقى ودين، وكانت روح الشاعر التى تلون حديث عبيد الله فيما أظن هى التى قربته من قلب عمر ولعل هذه الصلة توثقت لما كان عمر واليا على المدينة.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الصلة لم تمنع عبيد الله أن يجابه عمر بما يراه أنه قد أخطأ فيه، وأن يحاسبه عليه حسابا أقل ما يوصف به أنه ليس فيه مجاملة ولا حتى لطف فى توجيهه إلى الصواب، وقد كان ما يمتاز به عمر من متانة الخلق والدين واستقامة المسلك ما جعله يحفظ لاستاذه منزلة الاستاذية من غير أن تأخذه عزة الحكم ولا سطوة السلطان.

ويبدو أن عمر فى صدر شبابه بحكم انتسابه لبنى أمية وما كان يجرى فى مجالسهم قد جرى على لسانه ما يفهم منه أنه عيب لبعض الصحابة فبلغ ذلك عبيد الله، وكان من عادة عمر أن يتردد عليه ويأتى مجلسه من حين لآخر ومما لا شك فيه أن عبيد الله كان يتلقاه بالبشر والترحاب والإقبال عليه بما يليق برجل فى مثل مكانته ومركزه وسلطانه وأخلاقه ومعرفته،؟ إلا

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ٧٩

أن عبيد الله بعد ما بلغه ما نسب إلى عمر من الوقوع فى بعض الأصحاب لم يلتفت إليه حين جاءه ولم يستقبله بالترحاب والبشاشة التى عهدها منه. وكان فى عمر عقل وحكمة وذكاء فأدرك أن هناك سببا جعل عبيد الله يغير من عادته معه، فأقبل عليه قائلا فى أدب جم وتواضع يحسده عليه ملوك الدنيا: يا أبا محمد، إن لك لشأنا، فإن رأيت لى عذرا فاقبل عذرى.

فقال عبيد الله: أتتهم الله فى علمه؟

أجاب عمر: أعوذ بالله.

تابع عبيد الله: أتتهم رسول الله فى حديثه؟

ويجيب عمر: أعوذ بالله.

فيعقب عبيد الله قائلا: يقول الله عز وجل «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة (١)»، وأنت تقع فى فلان، وهو ممن بايع فهل بلغك أن الله سخط عليه بعد أن رضى عنه؟

ويجيب عمر مذعنا للحق ممتثلا له. والله لا أعود أبدا (٢).

والذى يقف على هذا الحوار لا يملك إلا أن يثنى على عبيد الله لشجاعته فى الحق وبذله النصيحة لله. وممارسة دوره فى الأستاذية والتوجيه حتى ولو كان ذلك مع الوالى اليوم والخليفة غدا.

وهذا أمر - لا شك - محمود، إلا أن الموقف الذى يملأ النفس والقلب بالإعظام والإجلال هو موقف عمر الذى لم يأنف من قبول النصيحة ولم يستنكف من الاعتراف بالخطأ ولم يتردد فى الاعتذار عما بدر منه، وما أجمل امتثاله للحق حينما بدت له ملامحه من آيات الله سبحانه، وصدق حديث من يحاسبه، وأكثر من ذلك وأبلغ فى السمو عياذه بالله مما ظن أنه قد يرمى به بالنسبة لكلام الله سبحانه وحديث نبيه صلوات الله عليه.

---

(١) سورة الفتح ايه رقم ١٨

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٩٥

ولاشك أن الطبيعة السمحة للرجلين جعلت الموعظة تبلغ غايتها، وتفعل فعلها، وتؤدى رسالتها، وهكذا يكون الجهر بالحق والانصياع له عظمة للقائل والمستجيب على السواء.

تلك المقدرة التى أوتيها عبيد الله من الجهر بما يعتقده الحق حتى ولو كان غير ما يرى الوالى، حتى وإن كان ذلك الوالى عمر بن عبد العزيز القريب إلى نفسه المحبب إلى قلبه تتجلى فى الموقف التالى بين عمر بن عبد العزيز وعروة بن الزبير فقد كان عبيد الله وعروة يجريان فى قرن فقها وعلما وفضلا. وهما من فقهاء المدينة السبعة، دخلا سويا على عمر ابن عبد العزيز، وهو أمير المدينة فجرى ذكر عائشة وعبد الله بن الزبير، فقال عروة: سمعت عائشة تقول: ما أحببت أحدا حبى عبد الله بن الزبير لا أعنى رسول الله ﷺ ولا أبوى.

فلما سمع عمر ذلك قال: إنكم لتنحلون عائشة لابن الزبير انتحال من لا يرى لكل مسلم معه فيها نصيبا .

فقال عروة: بركة عائشة كانت أوسع من أن لا يرى لكل مسلم فيها حق، ولقد كان عبد الله منها بحيث وضعته الرحم والمودة التى لا يشرك كل واحد منهما فيه عند صاحبه أحد.

فقال عمر: كذبت.

فرد عروة: هذا عبيد الله بن عتبة بن مسعود يعلم أنى غير كاذب، وإن من أكذب الكاذبين من كذب الصادقين.

فسكت عبيد الله ولم يدخل بينهما فى شىء، فأفف بهما عمر وقال: اخرجا عنى.

ثم لم يلبث أن بعث إلى عبيد الله بن عتبة رسولا يدعوه لبعض ما كان يدعوه إليه فكتب إليه عبيد الله:

لعمر ابن ليلى وابن عائشة التى ... لمروان أدته أب غير زمل

لو انهمو عما وجدا ووالدا ... تأسوا فسنوا سنة المتعطل

عذرت أبا حفص وإن كان واحدا — من القوم يهدى هديهم ليس يأتلى
ولكنهم فاتوا وجئت مصليا — تقرب إثر السابق المتمهل
وعمت فإن تسبق فضئن مبرز — جواد و إن تسبق فنفسك فاعذل
فمالك بالسلطان أن تحمل القذى — جفون عيون بالقذى لم تكحل
وما الحق أن تهوى فتسعف بالذى — هويت إذا ما كان ليس بأعدل
أبى الله والأحساب أن ترأم الخنى — نفوس كرام بالخنى لم توكل (١)

وهذا موقف آخر يروى صاحب الأغانى أن عبيد الله ذهب يوما إلى عمر بن عبد العزيز مستأذنا عليه، فرده الحاجب قائلا: إن عنده عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان، وهو مختل به، فما كاد يسمع ما قاله الحاجب حتى انصرف مغضبا ثم بعث إلى عمر بالأبيات الآتية:

وإنى امرؤ من يصفنى الود يلفنى — وإن نزحت دار به دائم الوصل
عزيز إخائى، لا ينال مودتى — من الناس إلا مسلم كامل العقل
ولولا اتقائى الله قلت قصيدة — تسير بها الركبان أبردها يغلى
بها تنقض الأحلاس فى كل منزل — وينفى الكرى عنه بها صاحب الرحل
كفانى يسير إذ أراك بحاجتى — كليل اللسان ما تمر وما تحلى
تلاوذ بالأبواب منى مخافة — الملامة والاخلاف شر من البخل
ابن لى فكن مثلى أو ابتغ صاحبا — كمثلك إنى تابع صاحبا مثلى
وما يلبث الفتيان أن يتفرقوا — إذا لم يؤلف روح شكل إلى شكل (٢)

وقد اختلف ترتيب هذه الأبيات فى رواية بعض كتب الأخبار عن بعض، وهى تكشف عن مدى اعتزاز عبيد الله بنفسه وحرصه على كرامته، ووقوفه من عمر بن عبد العزيز موقف الند، فليس معنى الولاية أن يحجب الأكابر عن بابه أو أن ينتظر من عبيد الله أن يرده حاجبه ثم يعود إليه ولا يلجأ إلى التلميح بل يصرح أن ما يمنعه من التشهير بعمر فى شعره إلا

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٩٠
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٩٠، ٩٦

تقوى الله، ويعلن لعمر فى وضوح أنه لا يقبل أن يكون له صاحبا إلا إذا كان عمر مساويا له، ولا يرى لنفسه عليه تقدما، فإن كان عمر غير راغب فى ذلك فليس هناك داع إلى هذه الصحبة وليبحث له عن صاحب سواه لأن الأصحاب إذا لم يجمع بينهم تماثل فى الأمزجة فإن تفرقهم وشيك، وفى هذا إلماح إلى معنى الحديث النبوى «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وما كاد عمر يعلم بأمر هذه الأبيات وغضبة عبيد الله حتى بعث إليه باثنين من أصحابه المقربين إليه، هما أبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة (١) وعراك بن مالك (٢) يبلغانه اعتذاره، ويخبرانه أن عمر يقسم بالله ما أعلم بإتيانك، ولا برد الحاجب إياك فعذره عبيد الله وقبل منه .

ويبدو أن أحداث الرضى والخصام قد تعددت بين عبيد الله وبين عمر. فقد روى عن ابن شهاب قال: جئت عبيد الله بن عبد الله يوما فى منزله، فوجدته ينفخ، وهو مغتاظ، فقلت له: مالك؟

قال: جئت أميركم آنفا، يعنى عمر بن عبد العزيز، فسلمت عليه وعلى عبد الله بن عمرو بن عثمان فلم يردا على، فقلت:

فما تراب الأرض منها خلقتما ... ومنها المعاد والمصير إلى الحشر
ولا تأنفا أن تسألا وتسلما ... فما حشى الإنسان شرا من الكبر
فلو شئت أن ألقى عدوا وطاعنا ... لألفيته أو قال عندى فى السر
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ... ضحكت له حتى يلج ويستشرى
وكيف يريدان أن ابن تسعين حجة ... على ما أتى وهو ابن عشرين أو عشر

فقلت له: رحمك الله، أتقول الشعر فى فضلك ونسكك؟

---

(١) العدوى المدنى قال عنه الزهرى: كان من علماء قريش، وكان عارفا بالنسب وذكره ابن حبان فى الثقات.راجع تهذيب التهذيب جـ ١٢ ص٢٥

(٢) الغفارى الكنانى المدنى شامى تابعى ثقة من خيار التابعين كان من أشد مؤازرى عمر بن عبد العزيز فى انتزاع ما بأيدى بنى مروان نفاه يزيد راجع تهذيب جـ ٧ ص ١٧٢، ١٧٣

قال: إن المصدور إذا نفث برأ (١)

ويبدو أن هذه المعاتبات لم تأخذ طريقها بين عبيد الله وبين عمر إلا بعد ما تقدمت السن بعبيد الله وكف بصره، وربما وجد الواشون فى ذلك سبيلا ليوغروا بها صدر عبيد الله على عمر منتهزين عدم إبصاره، أو ربما يكون عمر أثناء مروره بعبيد الله فى شغل شاغل لم يدع له فرصة الانتباه للزائر أو الانصراف إليه كما تعود عبد الله منه قبل ذلك. وكان فقد بصره فيما أظن سببا نفسيا جعله يستشعر من تلميذه تقصيراً فى حقه أو قعودا عن القيام بالواجب نحوه إلى جانب ماكان يصوره له مصاحبوه من انصراف عمر عنه وعدم اهتمامه به، وربما أضافوا إلى ماسبق شيئا على لسان عمر فيه نوع من العتب أو اللوم لعبيد الله، ولعلنا نستطيع أن نفهم على ضوء هذا الاستنتاج مارواه ابن عبد ربه فى العقد الفريد قائلا: وكان قد بلغ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود شيء يكرهه عن عمر بن عبد العزيز فكتب إليه.

أبا حفص أتانى عنك قول ... فضقت به وضاق به جوابى
أبا حفص فلا أدرى أرغمى ... تريد بما تحاول أم عتابى؟
فإن تك عاتبا نعتب وإلا ... فما عودى إذا بيراع غاب
وقد فارقت أعظم منك رزءا ... وواريت الأحبة فى التراب
وقد عزوا على وأسلمونى ... معا فلبست بعدهم ثيابى (٢)

ويبدو أن هذه الحساسية المفرطة قد أفسدت على عبيد الله صلته بأخوانه، ولاشك أن العامل النفسى كان بعيد الأثر فى هذه الحساسية لاسيما بعد فقده بصره فقد انعكس أثر ذلك ايضا على موقفه من صديقيه شراك بن مالك وأبو بكر بن حزم فقد مضى عليهم زمن وهم رفقة وأصدقاء يتجالسون ويتجاذبون أطراف الحديث ويخوضون فى أبواب من

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٩١، ٩٢

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٩٤

الفقه وضروب من العلم، وتصرف الزمن بهم حتى أصيبت عينا عبيد الله فكف بصره فى شيخوخته، وتولى ابن حزم إمارة المدينة وتولي عراك بن مالك قضاءها، وكانا اثناء تقلدهما لعملهما يمر الواحد منهم بعبيد الله فلا يقف إليه ولا يسلم عليه كما كانت عادتهما من قبل، وكان لا يعرف منهما ذلك لذهاب بصره، فلما أخبر بصنيعهما ممن حوله غضب وثار، وأنشد القصيدة التالية:

ألا أبلغا عنى عراك بن مـــالك ... ولا تدعــا أن تَثْنِيا بأبـى بكـر

فقد جعلت تبدو شواكل منكمـا ... كأنكما بى موقـران من الصــخر

وطاوعتما بى ماعكا ذا معاكـة ... لعمـرى لقد أزرى ومامثله يـزرى

ولولا اتقائى ثم بقياى فيكمـــا ... للمتكما لومـــا أحـــر من الجمـــر

فما تراب الأرض منها خلقتما ... ومنها المعاد والمصير إلى الحشر

ولاتأنفا أن تســـألا وتسلـمـــا ... فما حشى الإنسان شرا من الكبر

فلو شئت أن ألفي عدو و طاعنا ... لألفيته أو قال عندى فـى السـر

فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكمـــا ... ضحكت له حتى يلج ويستشترى (١)

ويلاحظ أن بعض الأبيات هنا مكرر مع ماسبق ولعله كرر هذه الأبيات فى المناسبتين مادام الموضوع واحدا والشاعر واحدا ايضا، ويلاحظ أن الأبيات الابعة الاولى لم ترد فى القصيدة السابقة، وأن الابيات الخمسة الاخيرة قد تكررت مع اختلاف طفيف فى التركيب، وإن كانت تبدو هنا أكثر اتساقا منها هناك.

أيام الشباب:

كان عبد الله فى شبابه يستهويه الجمال، ويأسر فؤاده ولا يرى بأسا من أن ينفث عن نفسه بمقطوعات يعبر فيها عن وجده وهواه، ومايعانيه من لوعات الهوى وحرقاته على عادة الشعراء الغزلين، ولكن فى عفة ورقة حاشية وترفع عن هجر القول.

---

(١) الأغانى جـ٨ ص ٩١

ويروى أن امرأة جميلة من هذيل قدمت المدينة من ناحية مكة فتقدم الناس لخطبتها، وكاد أن يذهب بعقول أكثرهم جمالها، وقد شارك عبيد الله فى الحديث عن حسنها ومعالجة هواها، واستشهد على صدق معاناته بفقهاء المدينة السبعة الذين يعدونه واحدا منهم، وفى هذا يقول:

احبك حبا لو علمت ببعضه ... لجدت ولم يصعب عليك شديد
وحبك يا أم الصبى مدلهى ... شهيدى أبو بكر وأنى شهيد
ويعلم وجدى القاسم بن محمد ... وعروة ماألقى بكم وسعيد
ويعلم ماأخفى سليمان علمه ... وخارجة يبدى لنا ويعيد
متى تسألى عما أقول فتخبرى ... فللحب عندى طارف وتليد

ولما بلغت هذه الابيالت سعيد بن المسيب قال: والله لقد أمن أن تسألنا وعلم أنها لو استشهدت بنا لم نشهد له بالباطل عندها (١).

زواجه بعثمة:

وكان عبيد الله قد تزوج امرأة اسمها عثمة، وكان لها فى قلبه مكانة لا تدانيها مكانة. فوقع بينهما بعض مايوجب العتاب ثم تطور الأمر حتى أدى بهما إلى الطلاق ولكن حبها لم يطلق فؤاده ولم ينله رقاده. فأسهر ليله، وأرق نهاره، ولم يستطع أن يكتم مابه من هواها، فانطلق شعره ينفث حرقات فؤاده، وما يلقاه من جراء ذلك الفراق الذى آلمه وأدمى قلبه.

ومن خبر ذلك مارواه الزبير بن بكار قال: قال لى عمى: لقينى على بن صالح فأنشدنى بيتا، وسألنى: من قائله؟ وهل فيه زيادة؟ فقلت: لا أدرى. وقد قدم ابن اخى يعنى الزبير – وقل مافاتنى شىء: إلا وجدته عنده.

قال الزبير: فأنشدنى عمى البيت وهو:

غراب وظبى أعضب القرن ناديا ... بصرم وصردان العشى تصيح

فقلت له: قائله عبيد الله بن عبد الله بن عتبة (وبعده):

الأغانى جـ٨ ص ٩٣

لعمرى لئن شطت بعثمة دارها لقد كدت من وشك الفراق أليح
أروح بهم ثم أغدو بمثله ويحسب أنى فى الثياب صحيح

فكتبهما عمى وانصرف بهما إليه (١).

وكان شعر عبد الله يتغنى به لرقته وصدقه، وجيشانه بمشاعر النفس، وأنات الفؤاد، ولئن عفت المنازل التى كان ينزل فيها مع عثمة، فإن هواها قائم لا يحول ولا يزول وما أصدق هذه النفثة التى ضمنها البيتين التاليين فإنك تجد فيهما صدق العاطفة وتدفقها:

عفت أطلال عثمة بالغميم فأضحت وهى موحشة الرسوم
وقد كنا نحل بها وفيها هضيم الكشح جائلة البريم (٢)

ولئن كانت رؤيته لهذه الرسوم تهيج ذكرياته، وتبدو المنازل عاطلة من زينتها إذا خلت من أهل هواه، وتكون فى عينه كئيبة موحشة لئن كان الامر كذلك بالنسبة للآثار المادية فإن المعانى التى فتنت قلبه لا تزال تعيش فى إحساسه وتلهب خاطره كلما مر به ذكراها، واشتد الأمر بعبيد الله حتى غلبه ماكان يلقاه فلم يستطيع أن يكتمه أو يداريه، وكيف له بكتمانه وكلما مرت به ذكرى أيامها تحرك قلبه كالطير لا يستطيع أن يكبح له جماحا، وما أصدق تصويره لما عاناه من جراء هذا الفراق، وزاد فى جمال تصويره ماازدان به أسلوبه من رقة في التعبير ورشاقة في الألفاظ، وعذوبة فى النغم تأسر لب السامع حقا، وتؤثر فيه أبلغ التأثير حين يقول:

تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
صدعت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم والتأم الفطور
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو ان إنسانا يطير

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٩٣

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٩٤ والبريم الخلخال.

غنى النفس أن أزداد حبا | ولكنـــى إلى صـــلة فقيــر
وأنفذ جارحاك سواد قلبى | فأنت عليّ ماعشنا أمير (١)

وسـار هذا الشـعـر عن عبيـد الله وانتشـر بين الناس مـايعـانيـه من لوعة الصبابة وعـهدهـم بمثل هذا أن يؤثر عن الغزلين من فتيان الشعراء فما بالك بأحد فقهاء المدينة السبعة فلما عوتب فى إيثار هذا اللون من القول عنه، وقيل له: أتقول فى مثل هذا؟ أجاب: فى اللدود راحة المفئود.

ومما قاله يصور ندامته على طلاقه زوجه تلك الأبيات الرقيقة:

كتم الهوى حتى أضر بك الكتم
ولامك أقوام ولومهمو ظلم
ألا من لنفس لا تموت فينفضى
عناها ولا تحيا حياة لها طعم
أأترك إتيان الحبيب تأثمـــــا | ألا إن هـجران الحبيب هو الإثم
فذق هـجرها قد كنت تزعم أنه | رشاد ألا يار بما كذب الزعم (٢)

وهو ممـاتغنى به أيضـا، ولاشك أن عظمـة هذا الشـعـر فى تعـبـيـره الصـادق عن إحسـاس قائله فى بساطة وعذوبة، وعلي غرار مـاسبق قـوله أيضا يشكو ماحل به من فراقها:

إن يك ذا الدهر قد أضربـنا | من غيــر ذحـل فربمـا نفعا
أبكى على ذلك الزمـــان ولا | أحسب شيئا قد فات مرتجعا
إذ نحن فى ظل نعمة سلفت | كانت لها كل نعمة تبعـا (٣)

وهذا لعمرى ضرب من القول يستأثر بانتباه سامعه، ويشد قارئه إليه، ويزداد عجـبه حينما يعلم أن قائله واحد من الفقهاء الذين يأخذ الناس

---

(١)الأغانى جـ ٨ ص ٩٤
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٩٤
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٩٣

عنهم أمور دينهم، ويتجهون إليهم يطلبون الفتوى، ولكن لا حرج مادام القول عفيفا، والفعل حميدا، والعفاف معروفا وكان عبد الله يروقه أن يسمع الثناء على شعره وأن يتلقى بالاستحسان من سامعيه، فقد جلس إليه يوما جامع بن مرجية الكلابى فأنشده:

لعمر أبى المحصين أيام نلتقى ... لما لا نلاقيها من الدهر أكثر

يعدون يوما واحدا أن أتيتها ... وينسون ماكانت على الدهر تهجر

وإن أولع الواشوان عمدا بوصلنا

فنحن بتجديد المودة أبصر

فأبدى جامع إعجابه بالأبيات فسر لذلك عبيد الله وكساه وحمله.

وجامع هذا من شعراء الحجاز وهو القائل:

سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينة هل فى حب ظمياء من وزر

فقال سعيد بن المسيب إنما ... تلام على ماتستطيع من الأمر

ولما بلغ قوله سعيدا قال هذا كذب والله ماسألنى ولا أفتيته (١).

وقال صاحب الأغانى إن لعبيد الله شعرا فحلا جيدا.

وأورد له شاهدا على ذلك قوله:

إذا كان لى سر فحدثته العدا ... وضاق به صدرى فللناس أعذر

وسرك مااستودعته وكتمته ... وليس بسرحين يفشو ويظهر (٢).

وقوله لابن شهاب الزهرى:

إذا قلت: أما بعد لم يثن منطقى

فحاذر إذا ماقلت كيف أقول

إذا شئت أن تلقى خليلا مصافيا

لقيت وأخوان الصفاء قليل (٣)

ومن جيد شعر عبيد الله:

أعاذل عاجل ما أشتهى ... أحب من الأجل الرائث

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٩٣

(٢، ٣) الأغانى جـ ٨ ص ٩٣

سأنفق مالي على لذتي وأوثر نفسي على الوارث
أبادر إهلاك مستهلك لمالي أو عبث العابث (١)

ومن قوله في الفخر:

إذا هي حلت وسط عوذ بن مالك فذلك ود نازح لا أطالعه
شددت حيازيمي على قلب حازم كتوم لما ضمت عليه أضالعه
أداجي رجالا لست مطلع بعضهم على سر بعض إن صدري واسعه
بنى لي عبد الله في ذروة العلا وعتبة مجدا لاتنال مصانعه

هذا هو عبيد الله في جوانب شعره وعاطفته وغزله ولهوه بعيدا عن جد العلم وسلطان الفقه وشدة أصحاب الحديث رحمه الله وأحسن مثواه.

---

(١) الأغاني جـ ٨ ص ٩٣

الفصل الخامس
عـروة بن أذينـة

وهذا فقيه محدث ناسك شاعر غزل لبق. كان فى صباه يصوغ الألحان والغناء على شعره وينحله المغنين.

وابن أذينة من ثقات أصحاب الحديث، وعنه أخذ الحديث مالك بن أنس الأصبحى، وعبيد الله بن عمر العدوى.

وهو عروة بن أذينة بن مالك الحارث كان جده مالك معاصرا لعلى رضى الله عنه؛ وكان معتزلا للفتنة مع اعتقاده أن الحق مع على، ويبدو من استقراء بعض الروايات أن الإمام عليا كان يميل الى الحديث معه والإفضاء إليه بذات نفسه.

فقد روى أنه خرج إلى على فى شأن رجل مصطلم (١) من قومه انضم إلى جيش على، وخشى مالك عليه أن يقتل فينقرض عقبه، فأراد أن يستأذن عليا فى انصرافه معه، يقول مالك: فأدركت عليا عليه السلام بالبصرة، وقد هزم الناس، ودخل البصرة فجئته، فقال مرحبا بك ياابن الفقيمة، أبدا لك فينا بداء؟

قلت: والله: إن نصرك لحق، وإنى لعلى ماعهدت أحب العزلة، ثم ذاكرته أمر ابن عمى ذلك، فلم يبعد عنه، فكنت آتيه أتحدث إليه، فركب يوما يطوف وركبت معه، فإنى لأسير إلى جانبه إذ مررنا بقبر طلحة، فنظر إليه نظراً شديداً ثم أقبل على فقال: أمسى والله أبو محمد بهذا المكان غريباً، ثم تمثل:

وماتدرى وإن أزمعت أمرا	بأى الارض يدركك المقيل

والله إنى لأكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب.

---

(١) مصطلم لا عقب له.

قال:فوقع العراقيون يشتمون طلحة، وسكت على وسكت حتى إذا فرغوا أقبل على عليه السلام على فقال: إيه ياابن الفقيمة «والله إنه وإن قالوا ماسمعت لكما قال آخو جعفى:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا هو ماستغنى ويبعده الفقر

ثم أردت أن أكلمه فى شىء فقلت: ياأمير المؤمنين

فقال: ومامنعك أن تقول: ياأبا الحسن؟

فقلت: أبيت.

فقال: والله إنها لأحبهما إلى لولا الحمقى ولوددت أنى خنقت بحبل حتى أموت قبل أن يفعل عثمان مافعل، وماأعتذر من قيام بحق، ولكن العافية مما ترى كانت خيرا (١).

وكان عروة بن أذينة يخرج فى الثلث الأخير من الليل إلى شوارع البصرة مناديا ياأهل البصرة: «أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون» الصلاة الصلاة (٢).

ويبدو أن هذا كان منه بعد أن ولى الشباب وجاء المشيب بوقاره ونسكه وخشيته من الله.

رحلات عروة

وعروة من شعراء المدينة الغزلين ومن فقائها ومحديثها كذلك وقد رحل إلى مكة والبصرة ودمشق.

أما رحلته إلى مكة فكانت أيام ابن الزبير وكان لا يزال شابا حدثا، ورحل فى صحبة أبيه ورأى الكعبة محترقة، ويحدث عن هذه الرحلة فيقول: قدمت مع أبى مكة يوم احترقت الكعبة فرأيت الخشب وقد خلصت إليه النار، ورأيت الكعبة متجردة من الحريق، ورأيت الركن قد أسود وتصدع من ثلاثة أمكنة.

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠٠

(٢) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٧

فقلت: ماأصاب الكعبة؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب ابن الزبير فقالوا: هذا احترقت بسببه، أخذ قبسا فى رأس رمح فطيرت الريح منه شيئاً، فضربت أستار الكعبة فيما بين اليمانى إلى الاسود (١).

ويبدو أن هذه أولى رحلاته إلى مكة لما كان يافعا وإلا فمما لاشك فيه أن رحلاته إلى مكة قد تعددت بعد ذلك حاجا ومعتمراً.

أما رحلته إلى دمشق فكانت أكثر رحلاته إثارة وأوسعها شهرة لما ارتبط بها من أخذ ورد بينه وبين الخليفة هشام بن عبد الملك وكان عروة قد قال قصيدة يعرض فيها لجانب من الأخلاق التى يتحلى بها وهى:

لقد علمت وما الإسراف من خلقى ... أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيعنّينى تطلبه ... ولو جلست أتانى لا يعيننى
وإن حظ امرىء غيرى سيبلغه ... لابد لابد أن يحتازه دونى
لا خير فى طمع يدنى لمنقصة ... وغير من كفاف العيش يكفينى
لا أركب الامر تزرى بى عواقبه ... ولا يعاب به عرضى ولا دينى
كم من فقير غنى النفس تعرفه ... ومن غنى فقير النفس مسكين
ومن عدو رمانى لو قصدت له ... لم يأخذ النصف منى حين يرمينى
ومن أخ لى طوى كشحا فقلت له ... إن انطواءك عنى سوف يطوينى
إنى لأنطق فيما كان من أربى ... وأكثر الصمت فيما ليس يعنينى
لا أبتغى وصل من يبغى مفارقتى ... ولا ألين لمن لا يشتهى لينى

وكان من خبر هذه القصيدة أن عروة قدم إلى دمشق فى وفد من رجالات المدينة إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فلما دخلوا عليه ذكروا حوائجهم فقضاها، ثم التفت إلى عروة فقال ألست القائل، وأنشد البيتين فى مطلع القصيدة ثم قال فما أراك إلا سعيت أفلا قعدت فى بيتك حتى يأتيك رزقك.

قال: سأنظر فى أمرى ياأمير المؤمنين، وغفل عنه هشام فخرج من

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠٦

وقته وركب راحلته ومضى منصرفاً ثم تفقده هشام فعرف خبره فأتبعه بجائزة وقال للرسول: قل له: أردت أن تكذبنا وتصدق نفسك، فمضى الرسول فلحقه وقد نزل على ماء يتغدى عليه، فأبلغه رسالته ودفع إليه الجائزة فقال: قد صدقنى ربى وكذبك. ورواية صاحب العقد فيها اختصار واختلاف.

وقد روى صاحب الأغانى سببا آخر ومحاورة أخرى زيادة على ماتقدم لا بأس من إيرادها مادمنا بصدد تسجيل مثل هذه النوادر والمساجلات الأدبية المفيدة تقول الرواية إن ابن أذينة خرج إلى هشام بن عبد الملك فى قوم من أهل المدينة. وفدوا عليه. وكان ابنه مسلمة بن هشام سنة حج أذن لهم فى الوفود عليه. فلما دخلوا على هشام انتسبوا له وسلموا عليه.

فقال: ماجاء بك ياابن أذينة.

قال:

أتينا نمت بأرحامنا	وجئنا بإذن إلى شاكر
فإن الذى سار معروفه	بنجد وغار مع الغائر
إلى خير خندف فى ملكها	لباد من الناس أو حاضر

قال له هشام: ماأراك الا قد أكذبت نفسك حيث تقول:

لقد علمت وماالإسراف من خلقى	أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيعنيِّنى تطلبه	ولو صبرت أتانى لا يعنِّينى

فقال له ابن أذينة: ماأكذبت نفسى ياأمير المؤمنين ولكنى صدقتها. وهذا من ذاك. ثم خرج من عنده فركب راحلته الى المدينة.

فلما أمر لهم هشام بجوائزهم فقده فقال: أين ابن أذينة؟

فقالوا: غضب من تقريعك له. ياأمير المؤمنين. فانصرف راجعاً إلى

المدينة فبعث له هشام بجائزته (١).

وفى الخبر الذى أوردناه سابقا من أن عروة كان ينادى فى شوارع البصرة قائلا: «أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهو يلعبون.. دليل على أنه رحل إلى البصرة وأقام بها زمناً.

تناقل الناس شعره وإنشادهم له

كان شعر عروة بن أذينة سهلا صادقا معبرا يتناقله الناس ويروونه بعضهم عن بعض لما فيه من سلاسة وعذوبة ورقة، وكان اشتهار ذلك عن عروة مع معرفته بالفقه والحديث والنسك قد جعله مطمعا لكثير من المتأدبين والمتأدبات، يحفظون شعره فى صورة المعترضين عليه المزرين بطريقته، وليس ذلك فى الحقيقة إلا وسيلة للحديث معه والعبث به عبثا مثاره الإعجاب بما يقول والاهتمام به، بدليل حفظهم له وروايتهم إياه، ومن هذا القبيل مارواه صاحب الأغانى وغيره أن امرأة مرت على عروة وهو بفناء داره، فقالت له: أأنت ابن أذينة؟

قال: نعم.

قالت: أأنت الذى يقول الناس إنك امرؤ صالح وأنت الذى تقول:

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى ... عمدت نحو سقاء القوم أبترد

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لحر على الأحشاء يتّقد؟ (٢)

ويروى صاحب العقد أن المرأة وقفت عليه ومن حوله التلامذة فقالت: أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح وأنت القائل:

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى ... عمدت نحو سقاء القوم أبترد

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لحر على الأحشاء تتقد؟

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠٧

(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠٨، ١٠٩

لا والله ماقال هذا رجل صالح قط (١) .
وقد علق صاحب العقد بقوله: وكذبت عدوة الله عليها اللعنة ولكنه كان مصدورا فنفث؛ بل لم يكن مرائياً .
وقد تكرر مثل هذا الموقف مع سكينة بنت الحسين، يروى صاحب الأغانى أنها وقفت على عروة بن أذينة فى موكبها ومعها جواريها فقالت: ياأبا عامر، أنت الذى تزعم أن لك مروءة وأن غزلك من وراء عفة؛ وأنك تقى؟
قال: نعم
قالت: فأنت الذى تقول:

قالت وأبثثتها وجدى فبحت به	قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى فقلت لها	غطى هواك وما ألقى على بصرى

قال لها: بلى.
قالت: وأشارت إلى جواريها: هن حرائر إن كان هذا خرج من قلب سليم(٢).
وحسب شعر عروة شهرة أن يثنى عليه وعلى قائله عمر بن عبد العزيز فقد قال يوما: نعم الرجل أبو عامر الذى يقول:

وقد قالت لأتراب	لها زهر تلاقينا

وهذا البيت من قصيدة لها قصة مثيرة يرويها صاحب الأغانى فيقول: مر ابن عائشة المغنى بعروة بن أذينة، فقال له: قل لى أبياتا هزجا، أغنى فيها، فقال له اجلس فجلس فقال:

سليمى أزمعت بينا	فأين تقولها أينا
وقد قالت لأتراب	لها زهر تلاقينا
تعالين فقد طاب لنا	العيش تعالينا
وغاب البرم الليلة	والعين فلا عينا

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٧
(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠٨

فأقبـــــلن إليهـــا	مســـرعات يتهادينا
إلى مثل مهاة الرمل	تكسو المجلس الزينا
إلى خــود منعمـــة	حففــن بهـا وفدينا
تمنـــين منـــــاهن	فكنـــا ما تمنيـنا

فضحك ابن عائشة لما سمع البيت الاخير ثم قال، ياأبا عامر، تمنينك لما اقبل بخرك، وأدبر زفرك، فجعل عروة يشتمه.

ويقال إن ابن عائشة أقبل من الشام حتى نزل بقصر ذى خشب، ومعه مال وطيب وكسا، فشرب فيه مع أصحابه ثم نظروا إلى ظاهر القصر فصعدوا، ثم نظر ابن عائشة فإذا بنسوة بتمشين فى ناحية الوادى، فقال لأصحابه: هل لكم فيهن؟

قالوا: كيف لنا فيهن؟

فنهض فليس ملاءة مدلوكة ثم قام على شرفة من شرف القصر فتغنى بقصيدة ابن أذينة، فأقبلن إليه وطرب فاستدار فسقط فمات (١).

والحق أن شعر عروة قريب إلى النفس، يشعر المرء، وهو ينشده أنه يترجم عن مشاعره ووجدانه وذلك لصدقه وعذوبته ومن ذلك:

علقتــك ناشئـــا حتـــى	رأيت الرأس مبيضـــا
على يسر وإعسار وفيض	نوالكـــم فيضــــــا
ألا أحـبـب بأرض كـــنت	تحتلينـهـــا أرضــــا
وأهـــلك حبـــذا ماهــــم	وإن أبدوا لى البغضا (٢)

وليس كل ماقاله عروة قد قوبل بالاستحسان، وإن كان قد غنى به، فقد روى صاحب الأغانى أن أبا عبيدة قال لأبى السائب المخزومى ما أحسن عروة بن إذينة حيث يقول:

لبثوا ثلاث منى بمنزل غبطة	وهمو على غرض لعمرك ماهمو

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٧٥، جـ ٢١ ص ١٠٧، ١٠٨

(٢) الأغانى جـ ٥ ص ١٠٨

متجاورين بغير دار إقامة | لو قد أجد رحيلهم لم يندموا
ولهن بالبيت العتيق لبانـــة | والبيـــت يعرفهـــن لـو يتكلـــم
لو كان حيّا قبلهن ظعائنـا | حيا الحطيم وجوهـهن وزمـزم
وكأنهن وقد حسرن لواغبا | بيض بأكناف الحطيم مـركم

فقال أبو السائب: لا والله، ماأحسن ولا أجمل؛ ولكنه أهجر وأخطل فى صفتهن ثم لا يندم على رحيلهن، أهكذا قال كثير حيث يقول:

تفرق أهواء الحجيج على منى | وصدعهم شعب النوى صبح أربع
فريقان منهم سالك بطن نخلة | وآخر منهم سالك بطـــن تضـــرع
فلم أر داراً مثلها دار غبـطة | وملقى إذا التف الحجيج بمجمـع
أقل مقيما راضيا بمكـانــه | وأكثر جـــاراً ظاعنـــا لم يـــودع

انظر إليه كيف تقدمت شهادته علمه، وكنى لسانه ببيانه، وهل يغتبط عاقل بمقام لا يرضى به ولكن مكره أخوك لا بطل.

والعرجى كان بالعـهـد أوفى منهـمـا وأولى بالصـواب حين تعـرض لهـا نافرة من منى فقال لها عاتبا مستكينا:

عوجى على فسلمى جبر | فيم الصدود وأنتم سفر
مانلتقى إلا ثلاث منـــى | حتى يفرق بيننا النفر (١).

وعلى أن اغلب ماقـال ابن أذينة من الشـعـر كـان فى الغـزل والغناء إلا أنه قد ألم ببـعض فنون الشعـر الأخرى، وقد روت كتب الأدب أبياتا يرثى فيـهـا أخـاه بكرا وهى من أجـود شعـر الرثاء لما فـيـهـا من صـدق العـاطفة وحركة الأداء المعبر عن خوالج النفس يقول فيها:

سرى همى وهم المرء يسرى | وغاب النجـم إلا قيس فتر
أراقب فى المجرة كل نجـم | تعرض للمجرة كيف يجرى
لهمٍّ لا أزال لـــه مديمـــا | كأن القلب أسعر حر جمـــر
على بكر أخى ولى حمـيدا | وأى عيش يصفو بعـــد بكر

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠٩، ١١٠

وقد تغنى بهذا الشعر فى مجلس الوليد خالد صامة فسأله عن قائله فأخبره أنه عروة بن أذينة يرثى أخاه بكرا، فقال: وأى عيش لا يصفو بعده، هذا العيش والله الذى نحن فيه على رغم أنفه، والله لقد تحجر واسعا.

وقيل أن سكينة سألت من بكر هذا؟ أليس هو الأسود الدحداح الذى كان يمر بنا؟ قالوا: نعم، فقالت: لقد طاب كل شىء بعده حتى الخبز والزيت(١).

وكذلك تعقيب ابن أبى عتيق لما أنشده عروة الأبيات حينما: قال كل العيش والله يصلح بعده حتى الخبز والزيت، فغضب عروة من قوله وقام من مجلسه، وحلف ألا يكلمه ابدا فماتا متهاجرين (٢).

ولئن دل هذا على شىء فإنما يدل على تداول شعر عروة وتسابق الناس إلى روايته وترديده، لعل صدوره من فقيه محدث ناسك، وهو بهذه الرقة والعذوبة والقدرة على تحريك المشاعر كان سببا فى تداوله وإذاعته؛ لأن الناس عهدوا الفقهاء بعيدين عن العواطف والمشاعر، وإن تحدثوا فى امر اكتسب صرامة التقوى وجدالنسك فكان نفث عروة لهذا الشعر الرقيق داعيا إلى تلقفه وروايته وغنائه.

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠٠، جـ ١ ص ٢٣

(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ١١٠، ١١١

عروة وعبد الله بن عروة

وكان عروة بن إذينة ينزل على عروة بن الزبير أحد فقهاء المدينة السبعة فى قصره بالعقيق من وقت لاخر، وكان الحس الأدبى ورواية الشعر تجمع بينهما إلى جانب ما لكل منهما من قدم فى الفقه والحديث، وكان ابن أذينة يجد فى قصر عروة بالعقيق متنفسا يلجأ فيه إلى نفسه ويتحدث إلى صاحبه بما يفيض به وجدانه من رقيق الشعر وعذبه، ويتناقلان رائق الأخبار بعيدا عن زحمة الحياة وجدها.

فقد روى عبد الله بن عروة أن ابن أذينة زار والده بالعقيق، وخرجا يتمشيان ومعهما عبد الله وأبصر ابن أذينة راعيا له يقال له كعب نائما عن غنمه فانهال ابن أذينة على الراعى يضربه ويقول:

لو يعلم الذئب بنوم كعب ... إذا لأمسى عندنا ذا ذنب
وأضربه ولا يقول حسبى ... لابد عند ضيعة من ضرب(١)

يروى الحصرى فى كتابه جمع الجواهر أن عبد الله بن عروة (٢) قال: كان عروة بن أذينة نازلا فى دارى بالعقيق فسمعته ينشد لنفسه:

إن التى زعمت فؤادك ملها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فيك الذى زعمت بها فكلا كما ... أبدى لخلته الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحى حب لها ... لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها ... يوما وقد ضحيت إذن لأظلها
فإذا وجدت لها وساوس سلوة ... شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقها وأجلها
لما عرضت مسلما لى حاجة ... أرجو معونتها وأخشى دلها

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠٧

(٢) بعض الكتب يرى أن ابن أذينة كان صديقا لعبد الله بن عروة وبعضها يقول إنه صديق عروة بن الزبير

منعت تحيتها فقلت لصاحبي ماكان اكثـرهـا لنـا وأقلهـا
فَدَنَا وقـال: لعـلهـا معـذورة في بعـض رقبتهـا فقلت: لعلها

فـأتاني أبو السـائب المخزومي فـقلت له بعـد الترحيب والبشـر: ألك حاجة؟

قال: نعم أبيات لعروة بلغني أنك سمعته ينشدها فرددتها عليه فلما بلغت إلى قوله: فدنا وقـال لعلها مـعذورة، تطرب وصـاح، وقـال: هذا والله الصادق العهد، والدائم الود، لا الذي يقول:

إن كان أهلك يمنعـونك رغبـة عني فأهلي بي أضن وأرغب
أو ليس لي قربي إذا أقصيتني حدبوا علي وعندي المستعتب
فلـئن دنـوت لأوتـين بعفـة ولئـن نأيت لما ورائي أرحب
بأبي وعيشك أن أكون مقصرا رأيٌ أعـيش به وقلـب قلـب

لقد عدا هذا الأعرابي طوره؛ وتجاوز قدره، وأني لأرجو أن يغفر الله لصاحب الأبيات الأولى لحسن الظن بها وطلب العذر لها.

فعرضت عليه الطعام، فقال: سبحان الله أو يحسن الظن بمثلي أن يأكل طعاما بعد سماع هذه الأبيات؟ والله ما كنت لأخلط بها طعاما حتى الليل وانصرف.

أما الأبيات التي أنشدها أبو السائب فهي لبعض الهذليين ويقول عنها الحصري إنها من مليح الشعر وأولها:

طرقتك زينب والركاب مناخـة بحطيم مكة والنـدى يتصـبب
بثنية العلمين وهنـا بعدمـا خفق السماك وعارضته العقرب
وتحيـة وكرامـة لخيالهـا ومع التحية والكـرامة مـرحب
أني أهتديت ومن هداك ودوننا حمـل فقلة عازب فالمرقب (١).

---

(١) جاءت هذه القصة في زهر الآداب جـ ١ ص ٢٠٧، ٢٠٨. وفي الأغاني جـ ٢١ ص ١٠٩، وفي جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ٣٨، ٣٩ والرواية التي أثبتناها هي رواية جمع الجواهر، أما رواية الأغاني وزهر الآداب فهما مختصرتان.

طرائف أبى السائب

ومادام الحديث قد أوفى بنا إلى أبى السائب المخزومى فلا بأس أن نتحف القارىء بجانب من نوادره الطريفة فإن الهدف من هذا الكتاب هو الترويح بذكر مثل هذه الطرائف، خاصة ماجاء عن ذوى العفاف والشرف، ومن طرائف أبى السائب ماروراه الحصرى فى جمع الجواهر قال: كان أبو السائب كثير الطرب غزير الأدب، وله فكاهات مذكورة وأخبار مشهورة، وكان جده يكنى أبا السائب ايضا، وكان خليطا للنبى ﷺ، وأقبل الإسلام فكان النبى ﷺ إذا ذكره يقول: نعم الخليط أبو السائب لايدارى ولا يمارى، واسم أبى السائب عبد الله، وكان أشراف المدينة يقدمونه ويعظمونه لشرف منصبه، وحلاوة طربه.

قال الزبير بن بكار: كانت سليمة المشاوبية عاشقة لأفلح مولى الزهربين، فأتاها يوما أبو السائب المخزومي فقال: حدثينى، هل أتاك من حبيبك رسول؟

قالت: لا، قال: فهل قلت فى ذلك شعرا؟

قالت: نعم، ثم أنشدته:

ألا ليت لى نحو الحبيب مبلغا ... يبلغه التسليم ثم يقول

سليمة نضو ماترجى حياتها ... من الشوق، والشوق الشديد فتول

تعالج أحزانا وتبكى صبابة ... وأنت لما تلقاه فيك جهول

قال أبو السائب: أنا والله رسولك، فحفظ الشعر، وتوجه نحو أفلح فى يوم صائف شديد حره، فلقيه رجل من الأنصار، فقال: ياأبا السائب من أين أقبلت؟

قال:من عند سليمة المشاوبية

قال: وإلى أين تريد؟

قال: أريد أفلح مولى الزهريين أبلغه رسالتها

قال: أفى مثل هذا الوقت؟

قال: إليك ياابن أخى، فإن الجنة حفت بالمكاره وماعبد الله إلا بالصبر على ماترى (١).

ومن ألطف ماروى من فكاهات أبى السائب مارواه الزبيرى قال حدثنى جدى قال:أتانى أبو السائب المخزومى فى ليلة بعد مارقد الناس فأشرفت عليه، وقلت: هل من حاجة؟

فقال: سهرت فذكرت أخالى أستمتع به فلم أجد سواك، فلو مضيت بنا إلى العقيق فتناشدنا وتحدثنا؟

قلت: نعم، فنزلت، فما زال فى حديث إلى أن أنشدته فى بعض ذلك بيتى العرجى:

باتا بأنعم ليلة حتى بدا   صبح يلوح كالأغر الأشقر

فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فقال: أعده، فأعدته، فقال: أحسنت والله؛ وامرأتى طالق أن نطقت بحرف حتى أرجع إلى بيتى غيره

فمضينا فتلقانا عبد الله بن الحسين بن على أبى طالب وهو منصرف من ماله يريد المدينة، فقال: كيف أنت ياأبا السائب؟ قال:

فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت إلى وقال: متى أنكرت عقل صاحبك؟

قلت: منذ الليلة.

قال: لله؛ أى كهل أصيبت به قريش، ثم مضينا فلقينا محمد بن عمران التيمى قاضى المدينة يريد مالا له على بغلة؛ وكان أثقل الناس جسما؛ ومعه غلام له على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة؛ فسلم عليه ثم قال: كيف أنت ياأبا السائب؟

فقال: فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت إلى وقال: متى أنكرت عقل صاحبك؟

---

(١) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ص٣٧

قلت: آنفا؛ فتركني وانصرف.

قلت: أفتدعه هكذا!؟ ما آمن أن يتهور في آبار العقيق.

قال: صدقت؛ ياغلام؛ هات قيد البغلة؛ فوضعه في رجله؛ وهو ينشد البيت ويدافع بيديه؛ فلما أطال نزل الشيخ عن البغلة وقال: ياغلام؛ أحمله على بغلتي وألحقه بأهله؛ فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته الخبر؛ فضحك وقال:قبحك الله ماجنا فضحت شيخا من قريش وعذبتني وأنا لا أقدر أتحرك (١).

---

(١)جمع الجواهر ص ٣٧، ٣٨

الفصل السادس

عبد الرحمن القس

كان عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى من قراء أهل مكة وكان يلقب بالقس لعبادته ونسكه، وكان يشبه بعطاء ابن أبى رباح، وقد سمع غناء سلامة عرضاً على غير تعمد منه فهام بها وشغف حتى أصبح هيامه بها مجالا لإلهام الشعراء وإبداعهم.

وكان سيدها قد أحس بهيام القس بها ورآه يوما واقفا يسمع غناءها قدنا منه وعرض عليه أن يخرجها له ليسمعها فأبى. وظل يراوده حتى قال له أنا أقعدها فى موضع تسمع غناءها ولا تراها فأبى، لم يزل به حتى استجاب، وأقعده فى موضع يسمع من غير أن يراها أو تراه. ثم غنت فأعجبه غناؤها وبدا أثر هذا الإعجاب على وجهه. فعرض عليه أن يخرجها إليه لتغنيه فتمنع أولا ثم استجاب إليه فأقعدها بين يديه وخرجت فغنته وشغف بها وشغفت به شغفا عظيما.

ولما أحست سلامة لحظه إياها وفتنته بها اندفعت تغنى:

رب رسولين لنا بلغا	رسالة من قبل أن يبرحا
لم يعملا خفا ولا حافرا	ولا لسانا بالهوى مفصحا
حتى استقلا بجوابيهما	بالطائر الميمون قد أنجحا
الطرف والطرف بعثناهما	فقضيا حاجا وما صرحا

وماكادت تنتهى من غنائها حتى أغمى عليه وكاد أن يهلك وكان عبد الرحمن ذا حس مرهف وقلب يأسره الجمال ونضارة النغم العذب والصوت الساحر إلا أن قلبه مفعما بالتقوى مليئا بالخشية من الله، وكان إلى جانب ذلك يحمل بين جنبيه قلبا شاعرا فكلما فاض به الوجد أنشد:

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها ... فاعــجب لما تأتــى به الأيام
فاليــوم أعذرهــم وأعلــم أنمــا ... سبل الضلالة والهدى أقسام

وكان ترحيب سيدها به وتسامحه فى السماع منها والجلوس إليها قد شجعه على التردد عليه من وقت لآخر يستمع إلى غنائها العذب وصوتها الشجى وينشد فى ذلك الأشعار ويقدمها لها لتغنى بها ومن ذلك:

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر؟ ... وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر؟
ألا ليت أنى حيث صار بى النــوى ... جليس لسلمى حيث ماعــج مزهــر
وإنى إذا مــالمـوت زال بنفسهــا ... يــزال بنفســى قبلهــا حين تقبر
إذا أخذت فى الصوت كاد جليسها ... يطيــر إليها قلبــه حــين ينـظــر
كــأن حمــامــا راعبيــا مؤديــا ... إذا نطقت من صدرهــا يتغشمــر

ومما أنشده يعبر عن وجده بها ويصفها وهى تضرب بعودها.

إن سلامـــة التـــى ... أفقدتنى تجلدى
لو تراها وعودهـــا ... حين يبدو وتبتدى
للجريرين والغريض ... وللقـــرم معبــد
خلتهم بين عودهـــا ... والدساتين واليد

ومما أنشده فى وصف مايعانيه من الوجد بها.

أأثلة جر جـيرتــك الذيــالا ... وعاد ضمير ودكــم خبــالا
فإنى مستقيــلك أثل لبـــى ... ولب المرء أفضل ماستقــالا
أهابك أن أقول بذلت نفسى ... ولو أنى أطيـع القــلب قــالا
حياء منك حتى سل جسمى ... وشق على كتمــانى وطــالا

وقال يصف غناءها وترجيعها لصوتها فى نسق آسر:

ألم ترها لم يبعد الله دارهـــا ... إذا رجعت فى صوتها كيف تصنع
تمد نظام القـــول ثــم تــرده ... إلى صلصل فى صوتهــا يترجــع

وقد تناوله الناس وتحدثوا عن هيامه بها واختلفوا فى موقفهم منه فمنهم من يلومه ويعيب عليه وهو الفقيه العابد، ومنهم من يعذره ويرحمه لما

ألم به من هوى خارج عن طاقته ويصور هو هذا فى قصيدة يرجو نصيرا على هواه « لسلاّمة » أو زاجرا عنه.

سلام هل لى منكـــمُ ناصــر   أم هل لقلبى عنكمُ زاجر
قد سمع الناس بوجدى بكم   فمنهـــم اللائم والعـــاذر

وكان القس يتردد على بيت سيدها للاستماع لغنائها فخلا بها ويه المجلس يوما فقالت له: أنا والله أحبك.

فقال: وأنا والله أحبك

قالت: فأنا أحب أن أضع فمى على فمك

قال: وأنا والله

قالت: وأنا والله أحب أن أضع صدرى على صدرك

قال: وأنا والله

قالت: فما يمنعك؟ والله إن الموضع لخال.

فأطرق ساعة ثم قال: إنى سمعت الله يقول: « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » . وأنا والله أكره أن تكون خلة مابينى وبينك عداوة يوم القيامة ثم انصرف وعاد إلى ماكان عليه من النسك وقال من فوره.

إن التى طرقـتك بيـن ركـائب   تمشى بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبـك أو جـزاء مــودة   إن الرفيق له عليك ذمـــام
باتـت تعللنـا وتحـسب أننـا   فى ذاك أيقاظ ونحن نيـام
حتى إذا سطع الضيـاء لناظـر   فإذا الذى مابيننا أحـلام
قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها   فاعجب لما تأتى به الأيـام
فاليـوم أعـذرهم وأعلـم أنمـا   سبل الضلالة والهدى أقسام

وفى القصة التالية حقائق تفوق الخيال: فقد دخل ابن عمار يوما على بائع للجوارى يتسوم منه جارية وهو آنذاك فقيه أهل الحجاز فعرض الرجل عليه جارية بأكثر مما كان معه من الثمن، وكانت الجارية حسنة الوجه جدا فعلق القس بها وأخذه أمر عظيم وقد لمس تاجر الجوارى منه

اهتمامه بالجارية وتعلقه بها فأغلى الثمن وزاد فيه واشتهر اهتمام القس بالجارية وذكرها فمشى إليه عطاء وطاوس ومجاهد يعذلونه على هذا الموقف فقال:

يلومني فيك أقوام أجالسهم   فما أبالي أطار اللوم أو وقع

فبلغ الخبر عبد الله بن جعفر فلم يكن همه غيرها، فبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم، وأمر قيمة جواريه أن تزينها وتجليها ففعلت، وقدم المدينة فجاءه الناس يسلمون عليه، وجاءه جلة من أهل الحجاز فقال: مالي لا أرى ابن أبي عمار زائرا؟

فلما أخبر القس بسؤاله أتاه زائرا مسلما، ولما أراد أن ينهض استجلسه.

ثم سأله ابن جعفر: مافعل حبك فلانة؟

قال: في اللحم والدم والعصب والعظام.

فقال له: أتعرفها لو رأيتها؟

قال: جعلت فداك، هي مصورة نصب عيني عند كل خطوة وفكرة، ولو أدخلت الجنة ماكنت أنكرها.

قال ابن جعفر: والله مانظرت إليها منذ ملكتها، ياجارية أخرجيها فأخرجت ترفل في الحلي والحلل.

فقال: هي هذه.

فانشأ القس يقول:

هي التي هام قلبي من تذكرها   والنفس مشغولة أيضا بذكراها.

قال ابن جعفر: شأنك بها، فخذها فبارك الله لك فيها.

فقال: جعلت فداءك لقد تفضلت بشيء ماكان يتفضل به إلا الله، وولى بها.

فقال ابن جعفر: ياغلام، أحمل معها مائة ألف درهم ينعم بها معها.

فبكى ابن أبي عمار سرورا، ثم قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته،

جعلت فداك لئن كان الله وعدنا نعيم الآخرة، لقد عجلت أنت نعيم الدنيا، وفى رواية صاحب العقد: ياآل البيت لقد خصكم الله بشرف ماخص به أحدا قبلكم من صلب آدم، فتهنؤكم هذه النعمة وبورك لكم فيها.

تراجع اخبار القس فى
الأغانى جـ ٨ ص ٥ -١٣.
تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٧ ص ٣٣٧ - ٣٣٩
عيون الأخيار جـ ٤ ص ١٣٤
العقد الفريد جـ ١ ص ٢٢٧، ٢٢٨، جـ ٧ ص ١٧، ١٨

الفصل السابع
الغناء بين الحل والحرمة

كان للغناء دور بارز فى حياة الناس فى العصر الأموى حتى لقد بلغ من تأثيره فى الرأى العام أن أولع به بعض النساك والعباد حتى عرف من بين الجوارى المغنيات من سميت سلاّمة القس، وإنما سميت كذلك لأن أحد عباد مكة. سمعها ذات يوم فشغف بها كما مر بنا فى الفصل السابق ، واشتهر أمره، حتى قال فى ذلك ابن قيس الرقيات الشاعر:

لقد فتنتْ ريًا وسلاّمة القسا
فلم تتركا للقسّ عقلا ولا حسا
فتاتان أما منهما فشبيهة الـ
هلال وأخرى تشبه الشمســـا

ومادام الحديث قد تطرق بنا إلى الغناء فيحسن بنا أن نعرف موقف العلماء منه، ورأيهم فيه، أحلال هو أو حرام؟

وقد تناول العلماء منذ القدم قضية الغناء، ودارت آراؤهم حولها بعضهم يرى أنه حلال، ولا يجد حرجا من تعاطيه والمشاركة فيه والاستماع إليه وعلى هذا الرأى عامة أهل الحجاز، وبعضهم يرى أنه حرام، وينأى بنفسه عنه نأيه عن الحرام، ويعيب على من يبيحه أو يشارك فيه، وقد ذهب إلى هذه الوجهة عامة أهل العراق.

ولكل من الفريقين أدلة يحتج بها، ويؤيد بها مذهبه، وسنحاول هنا أن نعرض جهد الطاقة وجهة نظر كل من الفريقين، مؤيدة بما يرونه من أدلة.

أدلة الحجازيين والمبيحين للسماع :

يقول الحجازيون فى استدلالهم على جواز الغناء: إن الغناء أصله الشعر، وقد استمع النبى للشعر، وشجع الشعراء خاصة حسان على أن

يدافع عن الإسلام ونبيه بشعره، ومن قوله له فى ذلك: فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام، وكان يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه يفاخر عن رسول الله ﷺ، أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ «إن الله يؤيد حسان بروح القدس مانافح أو فاخر عن رسول الله وأنشده النابغة الجعدى

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال: أين المظهر ياأبا ليلى؟

قال: الجنة

قال: أجل إن شاء الله

ثم تابع النابغة قوله:

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له   حليم إذا ما أورد الامر أصدرا

فقال النبى ﷺ: لا يفضض الله فاك.

وكان الأصحاب يتناشدون الأشعار عند رسول الله -- وهو يبتسم لهم مشجعا.

وكان عمرو بن الشريد ينشده ﷺ من شعر أمية بن أبى الصلت وهو يستحثه ويستزيده، ويعلق قائلا: إن كاد فى شعره ليسلم. وأكثر من ذلك فإن النبى ﷺ كان ينشد الشعر نفسه وهو يعمل مع أصحابه فى حفر الخندق، ويقول:

لاهمّ إن العيش عيش الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

وقال فى شأن الشعر: إن من الشعر لحكمة.

ويقول الغزالى مستدلا على إنشاد الشعر مع لحن وصوت حسن: الشعر الموزون والمفهوم، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان، فيقطع بإباحة ذلك، لأنه مازاد إلا كونه مفهوما، والكلام المفهوم غير حرام، والصوت الطيب الموزون غير حرام، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم

المجموع نعم ينظر فيما يفهم منه، فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به، سواء كن بألحان أو لم يكن.

يقول الغزالى: والحق فيه ماقال الشافعى رحمه الله، إذ قال: الشعر كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح، ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان، فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا، ومهما انضم مباح لم يحرم، إلا إذا تضمن المجموع محظورا لا تتضمنه الآحاد، ولا محظور هاهنا (١).

الحداء:

والحداء نوع من الغناء فى السفر، يشجع الجمال على المضى فى سيرها وكان يقوم به أنجشة على عهد النبى ﷺ والبراء بن مالك وكذلك ابن رواحة فى عمرة القضاء، وكان أنجشة يحدو بالنساء، حتى قال له النبى ﷺ :رويدك سوقك بالقوارير».

واستمر الحداء من عادة العرب زمن النبى وبعده ولم ينكره أحد من الصحابة، والحداء ماهو إلا شعر يؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة، وكان الصحابة تارة يلتمسونه إما لتحريك الجمال للإسراع فى سيرها، وإما للإستلذاذ بجمال وقعه وحسن جرسه وجودة معناه وحلاوة صوت الحادى. ولم يدع أحد أن شيئا من ذلك حرام.

وليس من شك أن الاستجابة للنغمة الموزونة والصوت العذب شىء مركب فى طبيعة الإنسان وحتى الحيوان، وقد روى عن العرب أعاجيب فى استجابة الجمال لصوت الحداء، وإقبالها على السير هائمة على نغمات الحداة حتى ربما أوردها ذلك مورد التلف، ومن أعجب ماروى فى ذلك ماحكاه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرقى قال: كنت بالبادية، فواتيت قبيلة من قبائل العرب، فأضافنى رجل منهم، وأدخلنى

---

(١) الاحياء جـ ٦ ص ١٤٤

خباءه، فرأيت فى الخباء عبدا أسود مقيدا بقيد، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت، وقد بقى منها جمل، وهو ناحل، ذابل، كأنه ينزع روحه، فقال لى الغلام: أنت ضيف، ولك حق فتشفع فىّ إلى مولاى، فإنه مكرم لضيفه، فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر، فعساه يحلّ القيد عنى.

قال: فلما أحضروا الطعام امتنعت، وقلت: لا آكل مالم أشفع فى هذا العبد.

فقال: إن هذا العبد قد أفقرنى وأهلك جميع مالى.

فقلت: ماذا فعل؟

فقال: إن له صوتا طيبا، وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال، فحملها أحمالا ثقالا، وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة، من طيب نغمته، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد.

ولكن أنت ضيفى، فلكرامتك قد وهبته لك.

قال: فأحببت أن أسمع صوته، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك.

فلما رفع صوته هام ذلك الجمل، وقطع حباله، ووقعت أنا على وجهى، فما أظن أنى سمعت قط صوتا أطيب منه.

ومن غريب مايروى فى تأثير الحداء فى الجمال، أنه كان فى عهد أبى جعفر المنصور رجل يسمى سلام الحادى، كان يضرب المثل بحدائه، قال يوما للمنصور: مر ياأمير المؤمنين بأن يظمئوا إبلا، ثم يوردوها الماء، فإنى آخذ فى الحداء فترفع رؤوسها وتترك الشرب.

الغناء:

قال الغزالى: السماع فى أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا، كالغناء فى أيام العيد، وفى العرس،

وفى وقت قدوم الغائب، وفى وقت الوليمة، والعقيقة، وعند ولادة المولود، وعند ختانه، وعند حفظه القرآن العزيز، وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به، ووجه جوازه أن من الألحان مايثير الفرح والسرور والطرب، فكل ماجاز السرور به جاز إثارة السرور فيه، ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ:

طلع البدر علينا … من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا … مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا … جئت بالأمر المطاع

يقول الغزالى: فهذا إظهار السرور لقدومه ﷺ، وهو سرور محمود، فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضا محمود، فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم، أنهم حجلوا فى سرور أصابهم كما سيأتى فى أحكام الرقص، وهو جائز فى قدوم كل قادم يجوز الفرح به، وفى كل سبب مباح من أسباب السرور، ويدل على هذا ماروى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا الذى أسأمه فاقدر ماقدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو، إشارة الى طول مدة وقوفها، وروى البخارى ومسلم أيضا فى صحيحهما حديث عقيل عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى تدففان وتضربان، والنبى ﷺ متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر رضى الله عنه، فكشف النبى ﷺ عن وجهه، وقال: دعهما ياأبا بكر فإنها أيام أعياد.

ودخل النبى ﷺ على عائشة وسألها: أهديتم الفتاة إلى بعلها؟

قالت: نعم.

قال: فبعثتم معها من يغنى؟

قالت: لا.

قال: أوماعلمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل؟ ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم	فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا	ء ماحلت بواديكم

وفى حالة أخرى قالت عائشة: دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر رضى الله عنه فانتهرني وقال: أمزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، وقال: دعهما.

فلما غفل غمزتهما، فخرجتا.

ومن هذا القبيل استباحة النبى لنفسه ولعائشة أن يرقبا السودان، وهم يلعبون بالحراب والدرق فى يوم من أيام الأعياد، وقد روت عائشة أمر هذا اليوم فقالت كما جاء فى الصحيحين: كان يوم عيد يلعب فيه السودان بالورق والحراب، فإما سألت رسول الله ﷺ، وإما قال: تشتهين تنظرين؟

فقلت: نعم، فأقامنى وراءه، وخدى على خده، ويقول: «دونكم يابنى أرفدة، حتى إذا مللت قال: حسبك.

قلت: نعم

قال: فاذهبى (١).

وليس من شك فى أن هذا النوع من اللهو مباح، وحسبك فى إباحته أن النبى ﷺ وقف يراقبه، وساعد عائشة على التفرج عليه إبعادا للملل عنها وإمتاعا لها فى أمر لا حرمة فيه.

وكان الصوت الحسن دائما مظهرا من مظاهر نعمة الله على عباده، حتى ورد فى الحديث : «مابعث الله نبيا إلا حسن الصوت»، وجاء فى الحث على تحسين الصوت فى تلاوة القرآن الحديث الشريف: «لله أشد

(١) الاحياء جـ ٦ كتاب السماع من ص ١١٢١ حتى ١١٤٨

أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته»، وأثنى النبى على أبى موسى الأشعرى لحلاوة صوته بالقرآن فقال: «لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود»، وهذا أسيد بن الحضير كان حسن الصوت فى تلاوة القرآن حتى إن الملائكة كانت تتنزل تسمع قراءته قال أبو سعيد الخدرى: كان أسيد من أحسن الناس صوتا بالقرآن، فقال:

قرأت ليلة سورة البقرة، ولى فرس مربوط، ويحيى ابنى مضطجع قريبا منى، وهو غلام، فجالت الفرس، فسكت، فوقفت، وليس لى همّ إلا ابنى، ثم قرأت، فجالت الفرس، فسكت، فوقفت، وليس لى هم إلا ابنى، ثم قرأت، فجالت الفرس، فرفعت رأسى، فإذا شىء كهيئة الظلة، فى مثل المصابيح، مقبل من السماء، فهالنى، فسكت.

فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ، فأخبرته بما جرى معى، فقال: ذلك الملائكة دنوا لصوتك، ولو قرأت حتى تصبح لأصبح الناس ينظرون إليهم، وهناك رواية أخرى تقول: تلك الملائكة نزلت لقراءة سورة البقرة، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب (١).

وقال العلماء فى تفسير قوله تعالى: «يزيد فى الخلق مايشاء» (٢). إن المقصود بالزيادة هنا الصوت الحسن، وفى إنكار القرآن للصوت القبيح فى قوله تعالى «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» (٣) دلالة بمفهومه على مدح الصوت الحسن.

فمن هذه النصوص تبين إباحة إنشاد الشعر، والاستماع للغناء، والحداء، والصوت الحسن، والضرب بالدف، وهذه أدوات الغناء.

فإذا أبيحت مفردة فما المانع أن تباح مجتمعة، لكل هذه الأدلة السابقة رأى جم غفير من العلماء، وبخاصة علماء الحجاز جواز الاستماع إلى

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق جـ ٣ ص ٥٥

(١) سورة فاطر آية ٩

(٢) سورة نعمان آية ١٩

الغناء، وقد تناول الغزالى هذا الموضوع فى إسهاب وذكر عددا من العلماء الذين أجازوا الاستماع للغناء:

عمر والغناء:

روى أن عمر كان فى سفر، فرفع عقيرته بالغناء، وأنشد

وماحملت من ناقة فوق رحلها   أبر وأوفى ذمة من محمد

فاجتمع الناس، فقرأ، فتفرقوا، تكرر هذا منه ومنهم غير مرة فلما رآهم يجتمعون عليه، إذا غنى، ويتفرقون عنه إذا قرأ، قال: يابنى اللكناء (كاللخناء) إذا أخذت فى مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا اخذت فى كتاب الله تفرقتم (١).

ومعنى هذا أن عمر كان يتغنى من وقت لآخر، وأنه لم يكن يشعر بحرج أن يسمع الناس الخليفة وهو يتغنى، وإنما غاظه منهم أن يلتفوا حوله عند الغناء، وينصرفوا عنه عند القراءة.

قد ثبت أن عمر كان يسمع للغناء، ولم يكن ينهى عنه إلا إذا طال به الوقت حتى يتعدى على وقت الذكر والعبادة، فقد قال نائل مولى عثمان ين عفان: خرجت مع مولاى، عثمان فى سفرة سافرناها مع عمر فى حج أو عمرة، وكان عمر وعثمان وابن عمر أيضا، وكنت وابن عباس وابن الزبير فى شبان معنا أيضا ومعنا رباح بن المعترف الفهرى، فكنا نترامى بالحنظل، وكان عمر يقول لنا:

لا تنفروا علينا ركابنا، فقلنا ذات ليلة: احدُلنا؟

قال: مع عمر؟

قلنا: احد، فإن نهاك فانته، فحدا حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. فلما كانت الليلة الثانية، قلنا: يارباح، انصب لنا نصب العرب.

---

(٣) سيرة عمر بن الخطاب لعلى الطنطاوى جـ ٢ ص ٤٨٢، ٤٨٦

قال: مع عمر؟

قلنا: انصب فإن نهاك فانته.

فنصب لنا نصب العرب، حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف، فإن هذه ساعة ذكر.

فلما كانت الليلة الثالثة قلنا: يارباح، غننا غناء القيان (المغنيات).

قال: مع عمر؟

قلنا: غنه، فإن نهاك فانته، فغنى، فوالله ماتركه أن قال له: كف فإن هذا ينفر القلوب.

وخرج مرة للحج، ومعه خوات بن جبير، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، فقال القوم لخوات: غننا من شعر خراز.

فقال عمر: دعوا أبا عبد الله، فليغن من بنيات فؤاده يعنى من شعره.

قال: فمازلت أغنيهم حتى كان السحر.

قال عمر: ارفع لسانك ياخوات، فقد أسحرنا.

وقال أسلم: مر بى عمر وأنا وعاصم بن عمر نتغنى غناء النصب.

فقال: أعيدوا، فأعدنا، فقال مثلكما مثل حمارى العبادى، قيل له: أى حماريك أشر؟

قال: هذا ثم هذا (١) .

قال: مزيدة بن قعنب الرهاوى: كنا عند عمر رضى الله عنه إذ جاءه قوم، فقالوا: إن منا إماما يصلى بنا العصر، فإذا صلى صلاته تغنى بأبيات.

فقال عمر: قوموا بنا إليه.

فقاموا، فاستخرجه عمر من منزله (٢) .

وقال له:

إنه بلغنى أنك تقول أبياتا إذا قضيت صلاتك. فأنشدينها، فإن كانت

(١، ٢) سيرة عمر بن الخطاب لعلى الطنطاوى جـ ٢ ص ٤٨٢، ٤٨٦، ٤٨٧ .

حسنة قلتها معك، وإن كانت قبيحة نهيتك عنها، فقال:

وفؤادى كلمـــــا نبهـــته	عاد فى اللذات يبغى تعبى
لا أراه الدهـر إلا لاهيـــا	فى تمـــاديه، فقد برّح بـى
ياقرين السوء ماهذا الصبا	فنى العمـــر كذا باللـــعب
وشبـــاب بان منى فمضى	قبل أن أقضـى منه أربـى
نفس لا كنت ولا كان الهوى	اتقى المولى وخافى وارهبى

فقال عمر: نفسى لا كنت ولا كان الهوى، فصار يبكى ويقول:
اتقى المولى وخافى وارهبى، ثم قال: من كان منكم مغنيا فليغن هكذا(١).

رأى القائلين بالحرمة

ومع كل ماتقدم فقد

رأى جمع من العلماء تحريم الغناء، لأنه يسعر القلوب، ويستفز العقول، ويستخف الحليم، ويبعث على اللهو، ويحض على الطرب، وهو باطل فى أصله.

١- واحتجوا بقوله تعالى «ومن الناس من يشترى لهو الحديث»، وقالوا: إن المقصود بلهو الحديث هو الغناء.

٢- وبقوله تعالى:«أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون»، فإن السمد هو الغناء بلغة حمير كما فسرها ابن عباس عن النبى ﷺ

٣- وبقول عائشة رضى الله عنها: «إن الله حرم القينة وبيعها، وثمنها وتعليمها».

٤- وبما روى جابر رضى الله عنه أنه ﷺقال: «كان إبليس أول من ناح، وأول من تغنّى».

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب لعلى الطنطاوى جـ ٢ ص ٤٨٢، ٤٨٦، ٤٨٧.

٥- وبما روى أبو أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «ومارفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك»

٦- وبما روى عقبة بن عامر أن النبى ﷺ قال:«كل شىء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه، وملاعبته لامرأته».

٧- وبقول عثمان رضى الله عنه: ولا تغنيت ولا تمنيت، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ .

٨- وبقول ابن مسعود رضى الله عنه : «الغناء ينبت فى القلب النفاق.

٩- وبإنكار ابن عمر على قوم محرمين مروا عليه وفيهم رجل يتغنى، فقال: ألا لا أسمع الله لكم، ألا لا أسمع الله لكم.

١٠- وبما روى نافع أنه كان مع ابن عمر رضى الله عنهما فى طريق، فسمع زمارة راع، فوضع إصبعه فى أذنيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يانافع، أتسمع ذلك، حتى قلت: لا، فأخرج إصبعيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع».

١١- وبما ورد عن الفضيل بن عياض، أنه قال: الغناء رقية الزنا، وقال بعضهم: الغناء رائد من رواد الفجور.

١٢- وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل مايفعله السكر، فإن كنتم ولابد فاعلين، فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا.

هذا مجمل ماأورده القائلون بتحريم الغناء فى معرض استدلالهم على حرمته وقد ردّ عليهم القائلون بالحل هذه الأدلة وكشفوا عن المقصود الصحيح بها فأما الدليل الاول فإن الآية نزلت فى قوم كانوا يشترون

الكتب من أخبار السير والأحاديث القديمة، ويضاهون بها القرآن، ويقولون إنها أفضل، وليس يقال لمن سمع الغناء إنه يتخذ آيات الله هزوا.

وقال الغزالى فى الرد على هذا الدليل: وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالا به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم، وليس النزاع فيه، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به، ومضلا عن سبيل الله تعالى، وهو المراد فى الآية، ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما.

وقد هم عمر بقتل بعض المنافقين الذى كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا بسورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ، فقد رأى عمر فى فعله حرمة لما فيه من الإضلال مع أنه يقرأ القرآن، فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم (١).

وأما الرد على الدليل الثانى فقد قال فيه الغزالى: ينبغى أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا، لأن الآية تشتمل عليه.

فإن قيل إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم، فهذا ايضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم فى معرض الاستهزاء بالمسلمين، كما قال تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون» (٢). وأراد به شعراء الكفار، ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر فى نفسه.(٣).

الرد على الدليل الثالث وهو حديث تحريم القينة، فإن المراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجلس الشراب، فإن فى ذلك مدعاة للفتنة، وإقبالا على المحرم والنظر إلى الأجنبية، أما إذا آمنت الفتنة ولم يكن هناك محرم فلا حرمة فيه وقد غنت الجاريتان فى بيت عائشة والنبى يسمعهما، وفوق ذلك فإن العراقى ذكر فى تخريج الحديث أن إسناده ضعيف، وقال فيه البيهقى إنه ليس بمحفوظ (٤).

---

(١) الاحياء جـ ٦ ص ١٦٤

(٢) الشعراء آية ٢٢٤

(٣)، (٤) الاحياء جـ ٦ ص ١٦٤، ١٦٥

وفى معرض الرد على الدليل الرابع «إن ابليس أول من ناح، وأول من تغنى»، فإن العراقى قال فى تخريجه: لم أجد له أصلا.

وفى الرد على الدليل الخامس قال العراقى إن حديث أبى إمامة ضعيف، وعلى فرض ثبوته فإنه يحمل على أنواع الغناء التى ارتبطت بمحرم ولم ينازع أحد فى تحريمها.

وفى الرد على الدليل السادس حديث عقبة بن عامر: كل شىء يلهو به الرجل.. الخ.

ففى سنده اضطراب، ولا يدل قوله باطل على الحرمة، بل يعنى أنه لا فائدة فيه، وهو معارض أيضا بأن النبى نظر الى الحبشة وهم يلعبون وهو من اللهو المباح.

وأما قول عثمان فى الدليل السابع فلا يعنى أن الثلاثة التى ذكرها عثمان حرام، وربما تركها عثمان تورعا لا لإنها حرام.

وأما قول ابن مسعود «الغناء ينبت فى القلب النفاق» فى الدليل الثامن، أراد به فى حق المغنى، فإنه فى حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره، ويروج صوته عليه، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه، وذلك أيضا لا يوجب تحريما، فإن لبس الثياب الجميلة، وركوب الخيل المهملجة، وسائر أنواع الزينة، والتفاخر بالحرث والانعام والزرع وغير ذلك ينبت فى القلب النفاق والرياء، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله، فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط، بل المباحات التى هى مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا، ولذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملج تحته، وقطع ذنبه، لانه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشيته، فهذا النفاق من المباحات (١).

وأما قول ابن عمر فى الدليل التاسع: ألا لا أسمع الله لكم، لا يدل على تحريم الغناء لذاته، وإنما قد يكون إنكاره لحالات لابست الغناء ومنها

---

(١) راجع الاحياء جـ ٦ ص ١٦٧

أنهم محرمون، ومن شأن المحرم أن ينصرف إلى التلبية والتكبير، لا إلى الغناء، أو لأن ماكان يردده المغنى لم تكن كلماته ولا أحواله تتفق مع ماهم فيه من الإحرام.

وأما حديث نافع عن ابن عمر أنه وضع إصبعه فى إذنيه فى الدليل العاشر، فقد قال عنه العراقى إنه حديث منكر، وعلى فرض ثبوته فإنه لا يدل على التحريم وإلا لطلب إلى نافع أن يضع إصبعه فى إذنيه أيضا، ولكنه لم يفعل، وهذا يعنى أنه كان فى حالة خاصة لم يرد لهذا الصوت أن يقطعه عنها.

ويحمل ماروى عن الفضيل بن عياض ويزيد بن الوليد من الإزراء على الغناء والتحذير منه والتنبيه إلى خطره على الغناء الذى يتعاطاه الفساق، فليس النهى عن الغناء لذاته وإنما جاء النهى لارتباطه بما يجعله حراما من آلات أو كلمات أو حركات أو اجتماعات لا يباركها الشارع ولا يرضى عنها.

هذه خلاصة لأدلة القائلين بحرمة الغناء والرد عليها أخذنا أكثرها من كلام الغزالى فى مناقشته لهم.

الفصل الثامن

رأى الغزالى

لم يناقش أحد من العلماء قضية الغناء باستفاضة كما فعل الغزالى لذلك رأينا ان نفرد رأيه فى فصل خاص نعرض فيه وجهة نظره، ومما كتبه فى هذا المجال قال:

«نقل أبو طالب المكى إباحة السماع عن جماعة فقال: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابى وتابعى بإحسان، وقال: لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل ايام السنة، وهى الأيام المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره، كأيام التشريق، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا، فأدركنا أبا مروان القاضى، وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية.

قال: وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما، قال: وقيل لأبى الحسن بن سالم كيف تنكر السماع، وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يستمعون، فقال: كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى، فكان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع، وإنما أنكر اللهو واللعب فى السماع، وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء، فما نراها، ولا أراها تزداد إلا قلة، حسن الوجه، مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء، ورأيت فى بعض الكتب هذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبى، وفيه مايدل على تجويزه السماع مع زهده، وتصاونه وجده فى الدين، وتشميره،

قال: وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع، وحكى غير واحد أنه قال: اجتمعنا فى دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع،

وأبو بكر بن داود، وابن مجاهد فى نظائرهم، فحضر سماع، فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود فى ان يسمع، فقال ابن داود حدثنى أبى عن أحمد بن حنبل، أنه كره السماع، وكان أبى يكرهه، وأنا على مذهب أبى، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع، أما جدى أحمد بن بنت منيع، فحدثنى عن صالح بن أحمد، أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة، فقال ابن مجاهد لابن داود دعنى أنت من أبيك، وقال لابن بنت منيع دعنى أنت من جدك، أى شىء تقول ياأبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام؟

فقال ابن داود: لا.

قال: فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده؟

قال: لا.

قال: فإن أنشده، وطوله، وقصر منه الممدود، ومدّ منه المقصور أيحرم عليه؟

قال: أنا لم أقو لشيطان واحد، فكيف أقوى لشيطانين؟ (١)....

وكان ابن جريج يرخص فى السماع، فقيل له: أيؤتى يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك؟

فقال: لا فى الحسنات ولا فى السيئات، لأنه شبيه باللغو، وقال الله تعالى: «لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» (٢).

احتجاج الغزالى لإباحة السماع

وقد تناول موضوع الغناء علماء الادب والأخبار إلى جانب علماء الفقه وكان الغزالى وهو من هو علما ونسكا وفقها وزهدا وتقوى - يرى إباحة السماع، ويستدل على إباحته بالسماع والقياس> فأما أدلته من السما

---

(١) راجع الاحياء جـ ٦ ص ١٣٨، ١٣٩

(٢) البقرة آية ٢٢٥

فقد أوردناها بين ماأوردنا من أدلة المبيحين للسماع، أما احتجاجه لإباحة الغناء والسماع بالقياس فقد عرضه عرضا مبسوطا ويحسن بنا أن نورد خلاصة وافية له هنا لأن ماجاء به أجمع مارأيت في مناقشة قضية الغناء والسماع، قال في معرض الاحتجاج لإباحة السماع. اعلم أن قول القائل: السماع حرام، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل، بل بالسمع، ومعرفة الشرعيات محصورة في النص، أو القياس على المنصوص. وأعني بالنص ماأظهره ﷺ بقوله، أو فعله، وبالقياس: المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله، فإن لم يكن فيه نص، ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه وبقي فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات، ولا يدل على تحريم السماع نص، ولا قياس، ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة المائلين الى التحريم، ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا في إثبات هذا الغرض، لكن نستفتح ونقول: قد دل النص والقياس جميعا على إباحته.

أنواع الأصوات

١- صوت طيب:

أما القياس: فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها، ثم عن مجموعها، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى، محرّك للقلب، فالوصف الأعم أنه صوت طيب، ثم الطيب ينقسم إلى المفهوم كالأشعار وغير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات.

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم، بل هو حلال بالنص والقياس؛ أما القياس، فهو أنه يرجع الى تلذذ حاسة السمع، بإدراك ماهو مخصوص به، وللإنسان عقل وخمس حواس، ولكل حاسة إدراك، وفي مدركات تلك الحاسة مايستلذ، فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن ، وبالجملة سائر

الألوان الجميلة، وهى فى مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة.

وللشم الروائح الطيبة، وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة.

وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة، وهى فى مقابلة المرارة المستبشعة.

وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة، وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة.

وللعقل لذة العلم والمعرفة، وهى فى مقابلة الجهل والبلادة.

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها، فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها.

ثم عقب على ذلك بما استشهد به من نصوص على صحة السماع، وقد تضمن ماجاء به فيما عرضناه من قبل، ثم عقب على النصوص التى استشهد بها بقوله: يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له، فلم لا يجوز سماع صوت تفهم منه الحكمة، والمعاني الصحيحة، وإن من الشعر لحكمة. فهذا نظر في الصوت من حيث إنه طيب حسن.

٢- صوت طيب موزون:

الدرجة الثانية: النظر فى الصوت الطيب الموزون، فإن الوزن ورا الحسن، فكم من صوت حسن خارج عن الوزن، وكم من صوت موزون غير مستطاب، والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة، فإنها إما إن تخرج من جماد كصوت المزامير، والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان، وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقماري وذات السجع من الطيور، فهى من طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع، فلذلك يستلذ سماعها، والأصل فى الأصوات

حناجر الحيوانات، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر، وهو تشبيه للصنعة بالخلقة، ومامن شيء توصل أهل الصناعات بصناعاتهم الى تصويره، إلا وله مثال فى الخلقة التى أستأثر الله تعالى باختراعها، فمنه تعلم الصناع، وبه قصدوا الاقتداء، وشرح ذلك يطول، فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة، فلا ذاهب الى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة، ولا بين جماد وحيوان، فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الاجسام باختيار الآدمى، كالذى يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره، ولا يستثنى من هذه إلا الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها، لا للذتها، إذ لو كان للذة لقيس عليها كل مايلتذ به الانسان، ولكن حرمت الخمور، واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة فى الفطام عنها حتى انتهى الأمر فى الابتداء الى كسر الدنان، فحرم معها ماهو شعار أهل الشرب، وهى الأوتار والمزامير فقط، وكان تحريمها من قبل الاتباع، كما حرمت الخلوة بالأجنبية، لأنها مقدمة الجماع، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوآتين، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر، ومامن حرام إلا وله حريم يطيف به، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه، ليكون حمى للحرام ووقاية له، وحظارا مانعا حوله، كما قال ﷺ : إن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه.. فهى محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل:

إحداها: أنها تدعو إلي شرب الخمر، فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر.

الثانية: أنها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأمس بالشرب، فهى سبب الذكر، والذكر سبب انبعاث الشوق، وانبعاث الشوق إذا قوي فهو سبب الإقدام، ولهذه العلة نهى عن الانتباذ فى المزفت، والحنتم، والنقير، وهن الأوانى التى كانت مخصوصة بها، فمعنى هذا أن

مشاهدة صورتها تذكرها وهذه العلة تفارق الأولى، إذ ليس فيها اعتبار لذة فى الذكر إذ لا لذة فى رؤية القنينة وأوانى الشرب، لكن من حيث التذكر بها، فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيرا يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهى عن السماع لخصوص هذه العلة.

الثالثة: الاجتماع عليها لما أن صار من عادة أهل الفسق، فيمنع من التشبه بهم، لأن من تشبه بقوم فهو منهم، وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة، خوفا من التشبه بهم، وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة، وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين، وضربها عادة المخنثين، ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو، وبهذه العلة نقول: لو اجتمع جماعة وزينوا مجلسا، وأحضروا آلات الشرب، وأقداحه، وصبوا فيه السنجبين، ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم، فيأخذون من الساقى ويشربون، ويحيى بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم، وإن كان المشروب مباحا فى نفسه، لأن فى هذا تشبها بأهل الفساد، بل لهذا ينهى عن لبس القباء، وعن ترك الشعر على الرأس قزعا فى بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر، لاعتياد أهل الصلاح ذلك فيهم.

فبهذه المعانى حرم المزمار العراقى والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها، وماعدا ذلك فليس فى معناها كشاهين الرعاة، والحجيج، وشاهين الطبالين، وكالطبل والقضيب وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب، لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر، ولا يذكر بها ولا يشوق إليها، ولا يوجب التشبه بأربابها، فلم يكن فى معناها، فيبقى على أصل الإباحة، قياسا على أصوات الطيور وغيرها.

بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضا، وبهذا يتبين أنه ليست العلة فى تحريمها مجرد اللذة الطيبة،

بل القياس تحليل الطيبات كلها، إلا ما في تحليله فساد، قال الله تعالى: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق» (١) فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعوارض أخر كما سيأتي في العوارض المحرمة.

الصوت الموزون المفهوم

الدرجة الثالثة: الموزون المفهوم وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك، لأنه مازاد إلا كونه مفهوما، والكلام المفهوم غير حرام، والصوت الطيب الموزون غير حرام، فإذا لم يحرم الآحاد، فمن أين يحرم المجموع نعم ينظر فيما يفهم منه، فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه، وحرم النطق به، سواء كان بألحان أو لم يكن.

والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله، إذ قال: الشعر كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح، ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان، فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا، ومهما انضم مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظورا لا تتضمنه الآحاد، ولا محظور ههنا، وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله ﷺ، وقال عليه السلام: إن من الشعر لحكمة...الخ.

الدرجة الرابعة:

النظر فيه من حيث إنه محرك القلب، ومهيج لما هو الغالب عليه، فأقول: لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا، فمن الأصوات مايفرح، ومنها مايحزن، ومنها ماينوم، ومنها مايضحك ويطرب، ومنها مايستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد

---

(١) الاعراف ٢٢

والرجل والرأس، ولا ينبغى أن يظن أن ذلك لفهم معانى الشعر، بل هذا جار فى الأوتار، حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج، ليس له علاج، وكيف يكون ذلك لفهم المعنى، وتأثيره مشاهد فى الصبى فى مهده، فإنه يسكته الصوت الطيب عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه، والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه، فتراها إذا طالت عليها البوادى، واعتراها الإعياء والكلال، تحت المحامل والأحمال، إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها، وتصغى إلى الحادى، ناصبة آذانها، وتسرع فى سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها، وربما تتلف أنفسها من شدة السير، وثقل الحمل، وهى لا تشعر به لنشاطها (١).

ثم يقول الغزالى: فإذاً تأثير السماع فى القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور؛ بل على جميع البهائم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته، ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب، لم يجز أن يحكم فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص، واختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم مافى القلب، قال أبو سليمان: السماع لا يجعل فى القلب ماليس فيه، ولكن يحرك ماهو فيه، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب.

وهذه المواضع هى سبعة مواضع نلخصها من الإحياء وهى غناء الحجيج، وغناء الغزاة التحريض على الغزو، والرجز الذى ينشده الشجعان

---

(١) الاحياء جـ ١ ص ١٤٧، ١٤٨

فى الميدان لتشجيع النفوس، والسماع فى أوقات السرور، وهذه كلها مباحة، وسماع العشاق تحريكا للشوق، وتهييجا للعشق وتسلية للنفس، وهذا حلال إن كان المشتاق إليه مما يباح وصاله كمن يعشق زوجته، أما إذا كان السماع فى وصف من لا يحل له فهو حرام لتهييجه النفس إلى مالايباح، ومن السماع المباح سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه ومن السماع أصوات النياحة ونغماتها، وتأثيرها فى تهييج الحزن والبكاء، وهى نوعان مذموم ومحمود، فالمذموم النياحة على الأموات، لأن فيها تسخطا لقضاء الله، ولهذا ورد النهى عنه، أما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه، وبكاؤه على خطاياه، وهو محمود لأنه يبعث الإنسان على تدارك مافاته من التقصير والبعد عما من شأنه ان يوقعه فى الخطأ (١).

ومما سبق من عرض رأى الامام الغزالى فى الغناء يتبين أنه يرى أنه مباح فى بعض المواضع، وأنه مندوب إليه فى بعض المواضع الأخرى، إلا انه يرى ايضا أن هناك عوارض قد تعرض فتجعله محرما، وهذه العوارض قد يكون مبعثها من المغنى أو من المستمع أو من الآلة المستعملة فى الإلقاء أو من الكلام ذاته، وقد لخصها تلخيصا حسنا بقوله:

إنه (السماع) يحرم بخمسة عوارض: عارض فى المُسْمِع أو فى مواظبته، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق، لأن أركان السماع هى:

المسْمِع، والمستمع، وآلة الإسماع.

أما العارض الذى فى المغنى فينشأ عن كون الشخص امرأة لا يحل النظر إليها، وتخشى الفتنة من سماعها، وفى معناها الصبى الأمرد الذى تخشى فتنته، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليست الحرمة هنا من الغناء، فإن المحاورة العادية مع المرأة لو كانت تؤدى الى الفتنة لحرمت،

---

(١) الإحياء جـ ٦ ص ١١٣١ ـ ١١٣٥ طبع دار الشعب

بل إن قراءتها للقرآن إذا كانت تؤدى إلى الفتنة حرم الاستماع إلى قراءتها ويحرم الغناء أيضا إذا كانت الآلات المستعملة فيه من شعار شاربى الخمر أو المخنثين وأهل الفسق، والحرمة هنا لسد الذريعة.

ويحرم الغناء إذا كانت الكلمات المغنى بها فيها الخنا والفحش والهجر والكذب على الله ورسوله والصحابة أو فيها مايؤذى المسلمين عامة، وأحيانا تكون الحرمة بسبب قائم فى نفس المستمع كأن يكون فى غرة الشباب، وتغلب عليه الشهوة، ويكون الغناء مذكيا للشهوة فى نفسه فيحرم فى حقه الغناء صيانة له عن الانزلاق فى الشهوات والوقوع فى الحرام، أو أن يعكف الشخص على الغناء وينصرف عن كل شىء سواه، فتتعطل عباداته وأعماله، ويصبح عالة لا نفع فيه، فهذا هو السفيه الذى تجب حمايته من الاستماع إلى الغناء، وتقويمه حتى يعود إلى الجادة.

هذه خلاصة وافية لرأى الغزالى فى الغناء، ومنها يتبين أن الأدوات التى تستعمل فى الغناء، وجاءت النصوص بتحريمها إنما حرمت لارتباطها بأشياء اخرى محرمة كمجالس الخمر، فلذلك كان تحريمها من باب سد الذرائع.

ولاشك أن حديث الغزالى ينصب على النوع العف من الغناء الذى كان سائدا فى عصره وقبل عصره، وأنه يعنى بأكثر مما يتحدث عنه إنشاد الصوفية وسماعهم، وكلا النوعين كان يعتمد على الصوت الحسن والمعنى الراقى واللحن المؤثر بعيد ا عما من شأنه أن يجلب الحرمة.

أما الصورة التى ارتبط بها أغلب الغناء فى عصرنا، فلم تدر له بخلد، ولم يبلغ مدى خياله إلى تصورها، ولو سمع مايسمع الناس اليوم من التثنى بالكلمات الخليعة، وإغراء المستعمين بالخلاعة واقتحام خلواتهم عليهم فى بيوتهم من خلال الإذاعة والتليفزيون بالصورة العارية، والحركة الآثمة، والكلمة المفحشة والنغمة الفاجرة، ودغدغة عواطف الشباب والشابات باسم الفن والموسيقى، فلا يرضى بها خلق، ولا يقبلها دين،

وشتان بين مانرى ونسمع اليوم، وماكان يسمع الأولون من الأدب الرفيع، واللحن العذب، والنغم الجميل بعيدا عن الإسفاف والمجون.

والذى لا سبيل إلى إنكاره أو المماراة فيه، أن النفس تميل الى سماع الصوت الجميل والنغم الآسر وتتأثر به، وتكتسب منه رقة الطباع ودماثة الأخلاق، وتذوق الجمال فى مختلف صوره وأشكاله ألوانا وصورا وألحانا وجرسا ومعانى ومناهج وسلوكا.

الفصل التاسع
كبار العلماء والغناء

جاء عن عدد من كبار العلماء استحسان لبعض صور الغناء التى تمر بهم أو يسمعونها عرضا فإذا وصل بعضها إلى الحد الذى لا يتسامح معه توقف، وطلب ممن يسمعه الكف عن الاستمرار فى أدب جم، ورقة بالغة واحتشام ووقار، لا يملك من يسمعه، إلا أن يستجيب له، ويحترم دعوته، من ذلك ما حدث به إبراهيم بن المنذر الخزاعى قال: إن ابن جامع السهمى «مغن مشهور» قدم مكة بمال كثير، ففرقه فى ضعفاء أهلها.

فقال سفيان بن عيينة: بلغنى أن هذا السهمى قدم بمال كثير.

قال تلاميذه: نعم.

قال: فعلام يعطى؟

قالوا: يغنى الملوك فيعطونه.

قال: وبأى شىء يغنيهم؟

قالوا: بالشعر.

قال: فكيف يقول؟

فقال له فتى من تلاميذه يقول:

اطوّف بالبيت مع من يطوف وأرفع من مئزرى المسبل

قال: بارك الله عليه، ما أحسن ما قال، ثم ماذا؟ قال:

وأسجد بالليل حتى الصباح وأتلو من المحكم المنزل

قال: وأحسن أيضا، أحسن الله إليه، ثم ماذا؟ قال:

عسى فارج الهمّ عن يوسف يسخّر لى ربة المحمل

قال: امسك، أمسك، أفسد آخرا ما أصلح أولا (١)

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٠

فهذا سفيان فى دينه ونسكه، وإمامته لم يعترض على الغناء، مادام هناك كلام حسن، فلما رآه تجاوز إلى ما لا يتسامح معه توقف عن الاستماع إليه.

وجرت محاورة فى حضرة محمد بن إبراهيم وإلى مكة بين ابن جريج وعمرو بن عبيد سألهما الوالى عن رأيهما فى الغناء بعدما اختلف فى شأنه الناس.

فقال ابن جريج: لا بأس به شهدت عطاء بن أبى رباح فى ختان ولده، وعنده ابن سريج المغنى، فكان إذا غنى لم يقل له اسكت. وإذا سكت لم يقل له غن. وإذا لحن ردّ عليه.

فقال عمرو بن عبيد: أليس الله يقول: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (١) فأيهما يكتب الغناء، الذى عن اليمين أو الذى عن الشمال؟.

فقال ابن جريج لا يكتبه واحد منهما، لأنه لغو كحديث الناس فيما بينهم من أخبار جاهليتهم، وتناشد أشعارهم (٢).

وهذا الأسلمى العابد جالس فى مسجد رسول الله ﷺ، فيمر به جرير المدنى المغنى. ويسلم عليه، فيومىء له بالجلوس، ثم يشير إلى حلقه متسائلا: كيف هو؟

ويجيب جرير بأنه أحسن ما كان قط.

فيقول الأسلمى: أما والله لوددت أنه خلالى وجهك، وأنك اسمعتنى

يا لقومى بحبلك المصروم	يوم شطّوا وأنت غير ملوم
أصبح الربع من أمامة قفرا	غير معنى معازف ورسوم

ويقول جرير: إذا شئت الآن ، فيقول : فى غير هذا الوقت إن شاء الله(٣).

---

(١) سورة ق آية رقم ١٨

(٢) العقد الفريد جـ ٧ ص١١

(٣) نفس المصدر ص ١٣، ١٤

وهذا الشعبى علامة التابعين وحبر الأمة يدخل على بشر بن مروان وهو والى العراق لأخيه عبد الملك، وكان عند بشر جارية فى حجرها عود، فلما أبصر بشر بالشعبى داخلا أمر الجارية فوضعت العود.

فقال الشعبى: لا ينبغى للأمير أن يستحيى من عبده.

قال: صدقتم، ثم قال للجارية، هاتى ما عندك، فأخذت العود وغنت

وممّا شجانى أنها يوم ودّعتْ   تولّتْ وماء العين فى الجفن حائر

فلما أعادت من بعيد بنظـرة   إلىّ التفـاتا أسلمتــه المحاجـر

فقال الشعبى: الصغير أكيسهما، يريد: الزير، ثم قال: يا هذه، أرخى من بمك، وشدّى من زيرك.

فقال له بشر: وماعلمك؟

قال: أظن العمل فيهما.

قال: صدقت، ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه (١).

ابن سريج والغريض فى بيت عطاء:

وهذاعطاء بن رباح شيخ مكة وفقيهها تقام فى داره حفلة غناء فى ختان أولاده يتبارى فيها مغنيا مكة ابن سريج والغريض ولو كان عطاء يرى فى ذلك حرمة لما سمح به فى داره، وأباح لإخوانه أن يجتمعوا عليه فى بيت من بيوته، وهو جالس فى ساحة الدار يسمع ويمتع نفسه.

حدث عبد الرحمن بن إبراهيم المخزومى قال: أرسلتنى أمى، وأنا غلام أسأل عطاء بن أبى رباح مسألة، فوجدته فى دار يقال لها دار المعلى وعليه ملحفة معصفرة، وهو جالس على منبر، وقد ختن ابنه، والطعام موضوع بين يديه، وهو يأمر به أن يفرق فى الخلق، فلهوت مع الصبيان باللعب بالجوز حتى أكل القوم، وتفرقوا، وبقى مع عطاء

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٤، ١٥

خاصته، فقالوا: يا أبا محمد، لو أذنت لنا، فأرسلنا إلى الغريض وابن سريج،

فقال: ما شئتم، فأرسلوا إليهما، فلما أتيا قاموا معهما، وثبت عطاء في مجلسه، فلم يدخل، فدخلوا بهما بيتا في الدار، فتغنيا، وأنا أسمع، فبدأ ابن سريج فنقر بالدف، وتغنى بشعر كثير.

بليلى وجارات لليلى كأنهــا ... نعاج الملا تحـدى بهن الأباعر

أمنطقع، يا عزُّ ما كان بيننا؟ ... وشاجرني يا عزّ فيك الشواجـر

إذا قيل هذا بيت عزة قادنـي ... إليه الهوى واستعجلتني البوادر

أصدّ وبي مثل الجنون لكي يرى ... رواة الخنـا أني لبيتـك هاجـر

فكأن القوم قد نزل عليهم السبات، وأدركهم الغشي، فكانوا كالأموات ثم أصغوا إليه بآذانهم، وشخصت إليه أعينهم، وطالت أعناقهم.

ثم غنى الغريض بصوت أنسيته بلحن آخر، ثم غنى ابن سريج، ووقع بالقضيب، وأخذ الغريض الدف، فغنى بشعر الأخطل:

فقلت أصبحـونا لا أبا لأبيكـم ... وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا

وقلت: اقتلوها عنكمو بمزاجهـا ... فأكرم بها مقتولة حين تقتـــل

أناخوا فجروا شاحبات كأنهـا ... رجال من السودان لم يتسربلوا

فوالله ما رأيتهم تحركوا، ولا نطقوا إلا مستمعين لما يقول، ثم غنى الغريض بشعر آخر، وهو:

هل تعرف الرسم والأطلال والدمنا ... زدن الفؤاد على ما عنـده حزنا

دار لصفـــراء إذ كانت تحل بهـا ... وإذ ترى الوصل فيما بيننا حسنا

إذ تستبيك بمصقـول عوارضـــه ... ومقلتي جؤذر لم يعـد أن شـدنا

ثم غنيا جميعا بلحن واحد، فلقد خيل إلى أن الأرض تميد وتبينت ذلك في عطاء أيضا، وغنى القريض في شعر عمر بن أبي ربيعة، وهو قوله:

كفى حزنا أن تجمع الدار شملنـا ... وأمسى قريبـا لا أزورك كلثمـا

دع القلب لا يزدد خبالا مع الذي ... به منـك أو داوى جـواه المكتمـا

ومن كـان لا يعـدو هـواه لسـانـه فقـد حلّ في قلبي هواك وخيمـا
ولـيس بتزويـق اللسـان وصوغـه ولكنـه قد خالط اللحـم والـدمـا

وغنى ابن سريج أيضا:

خليليّ عوجا نسـأل اليـوم منـزلا أبى بالبراق العفـرأن يتحـولا
ففـرع النبيت فالشـرى خـف أهلـه وبدّل أرواحا جنـوبا وشمـألا
أرادت فلـم تستطـع كـلاما فأومأت إلينا، ولم تأمن رسـولا فترسلا
بأن بتْ عسى أن يستر الليل مجلسا لنا أو تنـام العـين عنا فتغفـلا

وغنى الغريض أيضا:

يا صاحبـيّ قفـا نقـض لبـانة وعلى الظعائن قبل بينكما اعرضا
لا تعجـلانى أن أقـول لحاجـة رفقـا، فقد زوّدت زادا ممـرضـا
ومقـالها بالنعـف نعـف محسـر لفتـاتها هل تعـرفين المعرّضـا؟
هذا الذى أعطـى مواثيـق عهـده حتـى رضيت، وقلت لى لن ينقضـا

وأغانى أنسيتها، وعطاء يسمع على سريره ومكانه، وربما رأيت رأسه قد مال وشفتيه تحركان حتى بلغته الشمس، فقام يريد منزله، فما سمع السامعون شيئا أحسن منهما، وقد رفعا أصواتهما وتغنيا بهذا.

ولما بلغت الشمس عطاء قام، وهم على طريقة واحدة فى الغناء، فاطلع فى كوة البيت، فلما رأوه قالوا: يا أبا محمد أيهما أحسن غناء؟

قال: الرقيق الصوت، يعنى ابن سريج (١)

ومن أعجب ما روى صاحب الأغانى متصلا بعطاء فى هذا الشأن الخبر التالى: لقى عطاء بن أبى رياح ابن سريج بذى طوى، وعليه ثياب مصبغة، وفى يده جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ويجذبها به كلما تخلفت عنه.

فقال له عطاء: يا فتان، ألا تكف عما أنت عليه، كفى الله الناس مؤونتك.

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) الأغانى جـ ص ٩٧، ٩٨.

فقال ابن سريج: وما على الناس من تلوينى ثيابى، ولعبى بجرادتى!

فقال له: تفتنهم أغانيك الخبيثة.

فقال له ابن سريج سألتك بحق من تبعته من أصحاب رسول الله ﷺ وآله وسلم، وبحق رسول الله ﷺ عليك إلا ما سمعت منى بيتا من الشعر فإن سمعت منكرا أمرتنى بالإمساك عما أنا عليه، وأنا أقسم بالله، وبحق هذه البنية لئن أمرتنى بعد استماعك منى بالإمساك عما أنا عليه لأفعلن ذلك، فاطمع ذلك عطاء فى ابن سريج، وقال: قل: فاندفع يغنى بشعر جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا — وشلا بعينك لايزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لى — ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمعه عطاء اضطرب اضطرابا شديدا، ودخلته أريحية، فحلف أن لا يكلم أحدا بقية يومه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كل من يأتيه متسائلا عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الصوت حتى صلى المغرب.

إبراهيم بن سعيد الزهرى والغناء:

وهذا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الزهرى المحدث كان قاضى المدينة، وكان أبوه قاضى المدينة، وهو من ولد عبد الرحمن بن عوف، أخذ عن أبيه وعن مشاهير العلماء فى عصره كالزهرى وسواه، نشأ بالمدينة، وطلب الحديث وجمعه حتى صار علما من أعلامه، وذكر العلماء أنه روى عن محمد بن إسحاق وحده نحو من سبعة عشر ألف حديث فى الأحكام سوى ما رواه عنه فى المغازى، وقد أثنى العلماء على حفظه، وصدقه، وإتقانه، وتعددت شهادة علماء الرجال له بأنه صدوق ثقة حجة.

ولد عام ثمانية ومائة بالمدينة، وتوفى ببغداد عام أربعة وثمانين ومائة أو

ثلاثة وثمانين على خلاف بين علماء الرجال، وكانت سنه حين مات خمسا وسبعين سنة تقريبا.

وكان قد رحل إلى بغداد فى أخريات حياته، وتولى بها بيت المال، وأكرمه الرشيد وأظهر بره، وفى بغداد جلس ليأخذ عنه الناس الحديث وخاصة حديث الزهرى، وكان شأنه شأن علماء الحجاز لا يرى بأسا بالغناء، وكان قد سئل عنه فأفتى بحله، وكان أحيانا يتغنى فى مجلسه، وقد عرضه ذلك لإنكار بعض من لا يرون إباحة الغناء، فقد كان فى مجلس حديثه يوما، وجاءه بعض المشتغلين بالحديث ليأخذ عنه حديث الزهرى، فسمعه يتغنى، فلم يعجبه ذلك منه، ولم يخفه عنه، بل واجهه به مستنكرا قائلا له: لقد كنت حريصا على أن أسمع منك، فأما الآن فلا سمعت منك أبدا. فعلق إبراهيم قائلا: إذا لا أفقد إلا شخصك، ثم أقسم أيمانا مغلظة أن لا يحدث ببغداد إلا إذا قدم بين يدى حديثه بالغناء.

فى مجلس الرشيد: وشاعت عنه قصة يمينه حتى وصلت إلى مسامع الرشيد، وكان له مكرما، فأراد أن يتبين بنفسه صدق هذه الإشاعة، فدعاه إلى مجلسه، وسأله عن حديث المرأة المخزومية التى قطع النبى ﷺ يدها فى سرقة الحلى، وكان هذا يعنى أن يحدثه بحديث المخزومية، فطلب أن يحضروا له عودا فتساءل الرشيد: أعود المجمر؟

قال: لا ولكن عود الطرب.

فتبسم الرشيد، ابتسامة أدرك إبراهيم معناها، فقال: لعله بلغك يا أمير المؤمنين حديث ذلك السفيه الذى آذانى بالأمس، وألجأنى إلى أن حلفت؟

قال: نعم، ودعا له الرشيد بعود، فأخذ يغنى.

يا أم طلحة إن البين قد أفدا ... قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا

فقال الرشيد: من كان من فقهائكم يكره السماع؟

قال: من ربطه الله.

قال: فهل بلغك عن مالك بن أنس فى هذا شىء؟

قال: لا والله، إلا أن أبى أخبرنى أنهم اجتمعوا فى مدعاة كانت فى بنى يربوع، وهم يومئذ جلة، ومالك أقلهم من فقهه وقدره، ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون، ومع مالك دف مربع، وهو يغنيهم:

سليمى أجمعت بينـا فأين لقاؤها أينا

وقد قالت لأتراب لها زهر تلاقينـــا

تعالين فقد طاب لنـا العيش تعالـين

فضحك الرشد، ووصله بمال كثير (١)

وقد أورد صاحب العقد هذا الخبر مع اختلاف فى آخره عما هو عليه هنا، ولا بأس من عرض الجزء الأخير منه وهو

سأل الرشيدك من بالمدينة يحرم الغناء؟

أجاب إبراهيم: من قنعه الله بخزيه.

قال الرشيد: بلغنى أن مالك بن أنس يحرمه.

قال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، أو لمالك أن يحرم أو يحلل؟

والله ما كان ذلك لابن عمك محمد ﷺ إلا بوحى من ربه، فمن جعل هذا لمالك؟

فشهادتى على أبى أنه سمع مالكا فى عرس ابن حنظلة الغسيل يغنى

سليمى أجمعت بينا فأين بوصلها أينا

ولو سمعت مالكا يحرمه، ويدى تناله لأحسنت أدبه.

فتبسم الرشيد (٢)

حوار بين أبى يوسف القاضى وإبراهيم فى شأن الغناء:

روى صاحب العقد قال أبو يوسف لإبراهيم: ما أعجب أمركم، يا أهل المدينة فى هذه الأغانى.

---

(١)تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٨٤

(٢) العقد الفريد جـ ٧ س ١٢

ما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها.

فغضب إبراهيم وقال: قاتلكم الله، يا أهل العراق، ما أوضح جهلكم وأبعد من السداد رأيكم، متى رأيت أحدا سمع الغناء، فظهر منه ما يظهر من سفائكم هؤلاء الذين يشربون المسكر، فيترك أحدكم صلاته ويطلق امرأته، ويقذف المحصنة من جاراته، ويكفر بربه، فأين هذا من هذا؟ من اختار شعرا جيدا، ثم اختار جر ما حسنا، فردده عليه، فأطربه وأبهجه، فعفا عن الجرائم وأعطى الرغائب.

فقال: أبو يوسف قطعتني، ولم يحر جوابا (١).

---

(١)العقد الفريد جـ ٧ ص ١١، ١٢

الفصل العاشر
انتشار الغناء في المدينة

وكان الغناء قد انتشر بين أهل الحجاز وخاصة أهل مكة والمدينة، ونشأ عدد من المبرزين في الغناء منذ أوائل عهد بني أمية، وقد روت كتب الأخبار والأدب طرائف في الغناء نسبوها لعدد من صغار الصحابة وأبناء الصحابة وأحفادهم، وكان أبرز من عرف عنه ذلك عبد الله بن جعفر، وابن أبي عتيق، وسنلم بطرف من أخبارهما في هذا الشأن فيما بعد، أما الخبر الذي استوقفني فهو ما نسب إلى الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم وهو خبر مثير حقا، وإن كان الهدف منه أن يعلم ابن عائشة المغني حسن الخلق لأنه كان معروفا بضيق الخلق والمشاكسة، وقد كان ذلك في يوم من الأيام المهمة في تاريخ المدينة ذلك أنه كان إذا نزل السيل وفاض وادي العقيق أخضرت الأرض، وفرح الناس بالماء والخضرة، وخرجوا إلى وادي العقيق، وقد سال ماؤه، ينعمون ويحتفون بمقدم الغيث والخصب، وفي يوم من تلك الأيام سال وادي العقيق، وجاء بالعجب، فخرج أهل المدينة عن بكرة أبيهم حتى لم يبق بالمدينة كما يقول ابن الكلبي مخبأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني، وهو معتجر بفضل ردائه، وكان من أحسن الناس غناء وأنبههم فيه، وكان أيضا سيىء الخلق إذا قيل له غن يقول: أو لمثلي يقال هذا؟ على عتق رقبة إن غنيت يومي هذا، فإن غنى وقيل له: أحسنت، غضب وقال: لمثلي يقال أحسنت على عتق رقبة إن غنيت سائر يومي هذا. وكان الحسن بن الحسن بن علي فيمن خرج في ذلك اليوم إلى العقيق، وكان بين يديه أسودان كأنهما ساريتان، يمشيان بين يديه أمام دابته، فلما أبصر ابن عائشة قال لهما: أنتما حران لوجه الله إن لم تفعلا ما أمركما به ولم اقطعكما إربا إربا، اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه،

فخذا بضبعيه، فإن فعل ما آمره به وإلا فاقذفا به فى العقيق، فمضيا والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بضبعيه، فقال: من هذا؟

فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة.

قال: لبيك وسعديك وبأبى أنت وأمى.

قال: اسمع منى ما أقول، وأعلم أنك مأسور فى أيديهما، وهما حران وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت أن يطرحاك فى العقيق، وهما حران وإن لم يفعلا ذلك لأقطعن أيديهما.

فصاح ابن عائشة: وويلاه وأعظم مصيبتاه.

قال: دع من صياحك، وخذ فيما ينفعنا.

قال: اقترح، وأقم من يحصى، وأقبل يغنى.

فترك الناس العقيق، وأقبلوا عليه، فلما تمت أصواته مائةكبر الناس بلسان واحد تكبيرة واحدة ارتجت لها أقطار المدينة. وقالوا للحسن: صلى الله على جدك حيا وميتا، فما اجتمع لأهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت.

فقال له الحسن: إنما فعلت هذا بك يا ابن عائشة لأخلاقك الشكسة.

قال ابن عائشة: والله ما مرت على مصيبة أعظم منها، لقد بلغت أطراف أعضائى، فكان بعد ذلك إذا قيل له: ما أشد ما مر عليك؟

قال: يوم العقيق (١)

وكان الغناء قد انتشر بين أهل المدينة حتى أصبح يمثل ظاهرة غير مريحة وضاق به كثير من أشراف المدينة من القرشيين والأنصار، ولما ولى عثمان بن حيان المرّى المدينة اجتمع إليه أشرافها، وأشاروا عليه أن خير ما يعمله فى مبدأ ولايته أن يحرم الغناء والرثاء، فأصدر أمره بذلك وأجل من يتخذون الغناء صنعة لهم ثلاثة أيام.

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ٣٧، ٨

وكان ابن أبى عتيق من نبلاء قريش وظرفائهم، وله ولع بالشعر والنقد والغناء، وأخباره مع عمر بن أبى ربيعة تفيض بها الكتب، ونظراته فى نقد الشعر والمعرفة بجيده وأسباب الجودة تعتبر أولى نظرات نقدية جامعة فى الأدب العربى، وكان وثيق الصلة بالمغنيين وأهل الطرب، وكان بالمدينة فى أيامه امرأة تحترف الغناء اسمها سلامة الزرقاء، وكان ابن أبى عتيق غائبا عن المدينة لما أصدر عثمان المرى أمره بتحريم الغناء، وعاد فى اليوم الثالث، ومر بمنزل سلامة قبل أن يذهب إلى بيته، وقال لها: بدأت بك قبل أن أصير إلى منزلى.

قالت: أو ما تدرى ما حدث بعدك؟ وأخبرته الخبر.

فقال: أقيمى إلى السحر حتى ألقاه، فلقيه، فأخبره أنه إنما أقدمه حب التسليم عليه، وقال له: إن أفضل ما عملت تحريم الغناء والرثاء.

فقال: إن أهلك أشاروا علىّ بذلك.

قال: إنهم وفّقوا ووفقت، ولكنى رسول امرأة إليك تقول: قد كانت هذه صناعتى، فتبت إلى الله منها، وأنا أسألك أيها الأمير أن لا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبى ﷺ.

فقال عثمان: إذاً ادعها.

فقال ابن أبى عتيق: إذاً لا تدعك الناس، ولكن تدعو بها، فتنظر إليها، فإن كان يجوز تركها تركتها.

قال: فادع بها.

فأمر بها ابن أبى عتيق فتنقبت وأخذت مسبحة فى يدها وصارت إليه وحدثته عن مآثر آبائه ففكه بها، فقال ابن أبى عتيق أريد أن أسمع الأمير قراءتها، ففعلت، فحركه حداؤها، ثم قال ابن أبى عتيق: فكيف لو سمعتها فى صنعتها التى تركتها.

قال: قل لها فلتغن، فغنت

سددت خصاص البيت لما دخلته ... بكل بنان واضح وجبين

فنزل عثمان عن سريره، ثم جلس بين يديها، وقال: والله ما مثلك يخرج عن المدينة.

فقال ابن أبى عتيق. يقول الناس: أذن لسلامة ومنع غيرها.

فقال له: قد أذنت لهم جميعا (١)

ولابن أبى عتيق ولع بالغناء وشغف به وأخبار حسان منها أنه دخل على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعى عمة أبيه، فوضع رأسه فى حجرها أو على ركبتها، ويبدو أنه كان لايزال فتى صغيرا، ثم رفع عقيرته يتغنى:

ومقير حجل جررت برجله ... بعد الهدوّ له قوائم أربع

فاطرب زمان اللهو من زمن الصبا ... وانزع إذا قالوا أبى لا ينزع

فليأتين عليك يوما مرة ... يبكى عليك مقنعا لا تسمع

فقالت له عائشة: يا بنى، فاتق ذلك اليوم.

وحدث السائب راوية كثير عزة الشاعر قال: قال لى كثير يوما: قم بنا إلى ابن أبى عتيق نتحدث عنده، فجئناه، فوجدنا عنده ابن معاذ المغنى فلما رأى كثير قال لابن أبى عتيق: ألا أغنيك بشعر كثير؟

قال: بلى. فاندفع يغنى بشعره حيث يقول:

أبائنة سعدى؟ نعم ستبين ... كما انبتّ من حبل القرين قرين

أإن زمّ أ جمال وفارق جيرة ... وصاح غراب البين أنت حزين

كأنك لم تسمع ولم تر قبلها ... تفرق أحباب لهنّ حنين

فأخلفن ميعادى وخنّ أمانتى ... وليس لمن خان الأمانة دين

فالتفت ابن أبى عتيق - وكان ذا حس أدبى ناقد - إلى كثير فقال: وللدين صحبتهنّ يا ابن جمعة؟ ذاك والله أشبه بهن وأدعى للقلوب إليهن وإنما يوصفن بالبخل والامتناع، وليس بالأمانة والوفاء، وابن قيس الرقيات أشعر منك حيث يقول:

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ٥٤، ٥٥

حبــذا الإدلال والغنــج والتى فى طرفها دعج

والتـــي إن حدثت كذبت والتى فى ثغرها فلـج

وخبرونـــى هل على رجل عاشق فى قبلة حرج

فقال كثير: قم بنا من عند هذا، ثم نهض (١)

وكان ابن أبى عتيق كثير التردد على ابن جعفر لولعهما بالغناء، وحبهما للألحان، وفى إحدى زيارات ابن أبى عتيق لابن جعفر قال له مغريا له بالسماع: لو غنتك فلانة جاريتى صوتا ما أدركت ذكاتك.

قال ابن أبى عتيق: قل لها تفعل، وليس عليك إن مت ضمان.

فأخذ بيده عبد الله بن جعفر، وأدخله منزله، ثم أمر الجارية فخرجت وقال لها: هات، فغنت.

بهواك صيـّرنى العـذول نكـالا وجد السبيل إلى المقال فقالا

ونهيت نومى عن جفونى فانتهى وأمرت ليلـى أن يطول فطـالا

فرمى بنفسه ابن أبى عتيق إلى الأرض، وقال: فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر (٢)

أكثر من ذلك نرى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وكان لابن جعفر محبا، فغدا عليه يوما، وعنده جارية فى حجرها عود.

فقال ابن عمر: ماذاك يا أبا محمد؟

قال: وما تظن به يا أبا عبد الرحمن؟ فإن أصاب ظنك، فلك الجارية.

قال: ما أرانى إلا قد أخذتها، هذا ميزان رومى.

فضحك ابن جعفر، وقال: صدقت، هذا ميزان يوزن به الكلام، والجارية لك.

ثم قال: هات، فغنت.

أيا شوقـا إلى البلد الأمـين وحىٌّ بين زمـزم والحُجـون

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ٢٢. ٢٣

(٢) العقد الفريد جـ٧ ص ٢٣

ثم قال: هل ترى بأسا؟

قال: هل غير هذا؟

قال: لا.

قال: فما أرى بهذا بأسا. (١)

وسمع مرة عبد الله بن عمر ابن محرز يغني

لو بدلت أعلى منازلها سُفلا وأصبح سفلها يعلو

لعرفت مغناها بما احتملت مني الضلوع لأهلها قبل

فقال له عبد الله بن عمر: قل: إن شاء الله

قال ابن محرز: يفسد المعني.

قال: لا خير في كل معنى يفسده إن شاء الله (٢).

معاوية يعيب على ابن جعفر سماع الغناء:

وكان ابن جعفر ممن اشتهر بالاستماع للغناء، وتأديب الجوارى وتعليمهن والاستماع لهن، وله فى ذلك مواقف يدافع فيها عن الغناء ويرد على من يعيب عليه مذهبه، وكان بعضها بينه وبين معاوية، ولهما فى ذلك أخبار ممتعة قد يكون من المفيد أن نعرضها هنا، ونرى كيف جرت الأمور بينهما فى أمر الغناء، حدث الأصمعى قال: كان معاوية يعيب على عبد الله بن جعفر سماع الغناء، فأقبل معاوية عاما حاجا، فنزل المدينة فمر بدار عبد الله بن جعفر، فسمع عنده غناء على أوتار، فوقف ساعة يستمع، ثم مضى وهو يقول: استغفر الله، استغفر الله، فلما انصرف من آخر الليل مر بداره أيضا، فإذا عبد الله قائما يصلي، فوقف ليستمع قراءته، فقال: الحمد لله، ثم نهض، وهو يقول: «خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم».

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص١٢

(٢) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٣

فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعدّ له طعاما، ودعاه إلى منزله، وأحضر ابن صياد المغنى، ثم تقدم إليه يقول: إذا رأيت معاوية واضعا يده فى الطعام، فحرك أوتارك، وغن، فلما وضع معاوية يده فى الطعام حّرك ابن صياد أوتاره، وغنى بشعر عدى بن زيد، وكان معاوية يعجب به:

يا لُبَيْنَى أوقدى النارا	إن من تهوين قد حارا
ربّ نار بتُّ أرمقهـــا	تَقضم الهندىّ والغارا
ولها ظَبىٌ يؤججهــا	عاقد فى الخصر زنارا

فأعجب معاوية غناؤه، حتى قبض يده عن الطعام، وجعل يضرب برجله الأرض طربا، فقال له عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان، فهل ترى به بأسا؟

قال: لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان (١).

وقدم ابن جعفر الشام على معاوية، فبالغ فى إكرامه وبره، وأظهر له ما يستحقه، وأ نزله فى دار عياله، فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوجة معاوية، فسمعت ذات ليلة غناء عبد الله بن جعفر، فجاءت إلى معاوية، فقالت: هلم، فاسمع ما فى منزل هذا الذى جعلته بين لحمك ودمك، والله إنى لأسمع شيئا تكاد الجبال تخرّ له، وما أظنه إلا من تلقية الجنّ، ثم انصرف فلما كان من آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله، وهو قائم يصلى، فأنبه فاختة، وقال لها: اسمعى مكان ما أسمعتنى، هؤلاء قومى، ملوك بالنهار رهبان بالليل (٢).

ثم إن معاوية أرق ذات ليلة، فقال لخادمه حُديج: اذهب فانظر من عند عبد الله، وأخبره بخروجى إليه، فذهب فأخبره فأقام كل من كان عنده ثم جاء معاوية، فلم ير فى المجلس غير عبد الله، فقال: مجلس من هذا؟

قال: مجلس فلان.

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٩

(٢) المستطرف من كل فن مستظرف جـ ٢ ص ١٨٠

قال: مره يرجع إلى مجلسه.

ثم قال: مجلس من هذا؟

قال: مجلس فلان.

قال: مره يرجع إلى مجلسه.

حتى لم يبق إلا مجلس رجل، فقال: مجلس من هذا؟

قال: مجلس رجل يداوى الآذان، يا أمير المؤمنين.

قال له معاوية: فإن أذنى عليلة، فمره. فليرجع إلى موضعه، وكان موضع بديح المغنى، فأمره ابن جعفر، فرجع إلى موضعه.

فقال له معاوية: داو أذني من علتها، فتناول العود، ثم غنّى.

أمن أم أوفى دمنة لم تكلّمٌ   بحومانة الدّراج فالمتثلم.

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه.

فقال معاوية: لم حركت رأسك، يا ابن جعفر؟

قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين، لو لاقيت عندها لأبليت، ولئن سئلت عندها لأعطيت.

وكان معاوية قد خضب، فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكانت عند معاوية جارية أعز جواريه عنده، كانت متولية خضابه، فغناه بديح:

أليس عندك شكر للتى جعلت   ما أبيض من قادمات الشعر كالحمم

وجددت منك ما قد كان أخلقه   صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طربا شديدا، وجعل يحرك رجله.

فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين، سألتنى عن تحريك رأسى فأخبرتك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك.

فقال معاوية: كل كريم طروب، ثم قام، وقال: ألا يبرح أحد منكم حتى يأتيه إذني، فبعث إلى ابن جعفر بعشرة الاف دينار، ومائة ثوب من خاص ثيابه، وإلى كل رجل منهم بألف دينار، وعشرة أثواب (١).

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ٢٠، ٢١

ولنختم هذا الفصل بتلك القصة الطريفة، كان عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة، إذ سمع غناء، فأصغى إليه، فإذا بصوت رقيق يغني:

قل للكرام ببابنا يلجوا ما في التصابي على الفتى حرج

فنزل ابن جعفر عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن، فلما رأوه قاموا إليه إجلالا، ورفعوا مجلسه، ثم أقبل عليه صاحب المنزل، فقال: يا ابن عم رسول الله، دخلت منزلنا بلا إذن وما كنت لهذا خليق.

فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن.

قال: ومن أذن لك؟

قال: قينتك هذه سمعتها تقول: قل للكرام ببابنا يلجوا.

فولجنا، فإن كنا كراما فقد أذن لنا، وإن كنا لئاما خرجنا مذمومين.

فضحك صاحب المنزل وقال: صدقت جعلت فداك، ما أنت إلا من أكرم الأكرمين.

ثم بعث عبد الله إلى جارية من جواريه، فقال لها: غني، فغنت فطرب القوم، وطرب عبد الله، فدعا بثياب وطيب فكسا القوم وصاحب المنزل وطيبهم، ووهب له الجارية، وقال له: هذه أحذق بالغناء من جاريتك(١).

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ٢١

ثبت المراجع

١- الأغانى، لأبى الفرج الأصفهانى، طبع ساسى، والشعب.

٢- إحياء علوم الدين للغزالى

٣- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى

٤- تهذيب تاريخ دمشق، لابن عساكر.

٥- تهذيب التهذيب، لابن حجر .

٦- جمع الجواهر فى الملح والنوادر، للحصرى.

٧- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبى نعيم الأصبهانى.

٨- زهر الآداب، للحصرى، تحقيق دكتور زكى مبارك.

٩- سيرة عمر بن الخطاب لعلى وناجى الطنطاوى

١٠- طبقات الشافعية الكبرى، للسبكى.

١١- العقد الفريد، لابن عبد ربه، تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان.

١٢- عيون الأخبار لابن قتيبة.

١٣- معجم الأدباء، لياقوت الرومى، نشر الرفاعى.

١٤- وفيات الأعيان، لابن خلكان، طبع بولاق.

مراجع عامة:

١٥- القرآن الكريم.

١٦- كتب السنة.

١٧- أسد الغابة لابن الأثير.

الفهرس

رقم الايداع

٩٢ / ٧٧٣٥

مطابع المنار العربى

١ شارع العامل الاول – امبابة – الجيزة

ت : ٣٤٥٢٢٦٤ فاكس : ٥٣٦٧٩٢

ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة

هـــذا الكتـــاب

الإسلام دين الفطرة الإسلامية السوية هذه الفطرة التى يتوازن فيها الجـد والترويح الذى لا يُسِفّ ، والمؤلف يتتبع أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابه والتابعين وكبار الائمة ليقدم من هذه الاخبار ما يكشف عن أخْذ هؤلاء جميعاً بنصيب من الترويح عن النفس ، كما يتعرض لقضية الغناء والقائلين بالتحريم وحججهم ، والقائلين بالإباحه وبراهينهم...

وفى هذه الايام التى يكاد التزمت يصبح الوجه المألوف لبعض المسلمين ، يأتى هذا الكتاب ليكشف عن الوجه السمح للإسلام .